بحـــوث ودراســـات

الدكتور/ أحمد بن موسى عادل الشيشاني

مدير مركز السلطان مراد للدراسات الشيشانية

الزرقاء - الأردن

بعد إعلان انهيار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١م، برزت إلى الوجود الكيانات السياسية الإسلامية التي كانت ضمن الجمهوريات التي كانت تشكل الاتحاد السوفياتي المنهار، وهي جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية إضافة إلى جمهورية أذربيجان في القوقاز الجنوبي.

وهناك مسلمون في الاتحاد السوفياتي السابق مايزالون تحت الاحتلال الروسي والجورجي في منطقة شمال القوقاز، وكذلك منطقة نهر الفولغا والأراضي التي تقع جنوب روسيا الاتحادية حيث تقع جمهوريتا تتارستان وبشكيريا، كما يوجد مسلمون في الجمهوريات النائية التي تتبع روسيا الاتحادية في مناطق سيبيريا والأجزاء الشرقية من روسيا الاتحادية.

ويبلغ عدد المسلمين الذين لا يزالون تحت الحكم الروسي والجورجي نحو ثمانية عشر مليونًا.

وتعدّ منطقة شمال القوقاز التي تقع بين بحر قزوين شرقاً والبحر الأسود غرباً معقل الحركات الإسلامية المناوئة للحكم الروسي عبر تاريخ روسيا الاتحادية. وجاء إعلان جمهورية الشيشان استقلالها عن روسيا الاتحادية عام ١٩٩١م والغزو الروسي لهذه الجمهورية الإسلامية بمثابة حركة إحياء وتجديد لتاريخ الشعب الشيشاني الطويل في مقاومة الاحتلال الروسي، ومعه بقية شعوب شمال القوقاز الإسلامية التي سطّرت صفحات ناصعة في التاريخ الإسلامي بصمودها البطولي أمام قوات الاحتلال الروسي القيصري والحكم الشيوعي الذي حل مكان الحكم القيصري في روسيا الاتحادية.

وحيث إن العقيدة الإسلامية كانت هي -دائماً - الروح التي أوقدت شرارة المقاومة ضد الاحتلال القيصري والشيوعي لمنطقة القوقاز، فإن هذه الدراسة تتناول تاريخ الإسلام في منطقة القوقاز وتقدم للقارئ المسلم الحقائق الكاملة عن تاريخ الإسلام والمسلمين وحاضرهم في منطقة القوقاز.

وهذه الحقائق ستساعد القارئ المسلم على فهم الأحداث التي تشهدها منطقة القوقاز هذه الأيام وأسباب هذه الأحداث من منظور تاريخي إسلامي.

إن التقسيمات السياسية الحالية في منطقة شمال القوقاز بشكل خاص والتوزيع السكاني فيها -كما سيظهر من هذه الدراسة- هي نتيجة قيام الحكم الروسي القيصري والشيوعي بسلسلة من التغيرات السياسية والسكانية التي كان هدفها إضعاف الوجود الإسلامي في منطقة شمال القوقاز، ومنع الاتصال الجغرافي والديني بين شعوب شمال القوقاز، وتفريغ المناطق الإسلامية من سكانها الأصليين لكي تحل مكانهم شعوب غير إسلامية وبذلك تختفي الهوية الإسلامية التاريخية لهذه الشعوب.

وأرجو أن أكون بهذه الدراسة موفقا في تزويد القراء بالمعلومات الكافية التي تلقي الأضواء على معاناة الشعوب الإسلامية التي لا تزال تحت الاحتلال الروسي على كره منها مهما حاولت السلطات الروسية عبر وسائل إعلامها إقناع العالم الإسلامي بأن الشعوب الإسلامية التي تحكمها قبلت طواعية سيادة موسكو على أراضيها وخيراتها الاقتصادية.

يمكن القول بأن المسلمين في الاتحاد السوفياتي السابق خضعوا للحكم الروسي السوفياتي نتيجة التوسع الاستعماري لروسيا القيصرية، وبالتالي فإن لمحة تاريخية عن هذا التوسع ستكون مفيدة في إلقاء الضوء على الوجود الإسلامي في الكيانات السياسية التي نشأت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي.

أول دولة روسية قامت في منطقة كييف كانت في القرن العاشر الميلادي، وكانت تضم عدداً من الشعوب السلافية التي كانت تسكن حول هذه المنطقة ومنطقة موسكو والمناطق المجاورة لها جهة الغرب.

وقد بقيت هذه الدولة تدار من قبل حكومة مركزية قوية حتى القرن الثاني عشر، لكن في نهاية ذلك القرن انقسمت هذه الدولة الروسية إلى عدة دويلات مثل إمارة موسكو وإمارة كييف. وكان هذا الانقسام سبباً في نجاح المغول والتتار في اجتياح هذه الإمارات وإخضاعها لحكمهم الذي استمر ثلاثة قرون من أول القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر.

وفي نهاية القرن الخامس عشر -بعد أن ضعفت سيطرة التتار- برزت إمارة موسكو كأقوى إمارة بين الإمارات السلافية، واستطاعت بالتدريج السيطرة على بقية الإمارات السلافية ووحّدتها تحت حكم مركزي واحد هو حكم قيصر موسكو. وبذلك نشأت دولة روسية قوية موحدة في روسيا.

وفي بداية القرن السادس عشر، بدأ القياصرة الروس توسعهم الاستعماري وكان توسعهم الأول باتجاه الشرق وضموا إلى دولتهم الأجزاء الشرقية من جبال الأورال، وذلك عام ١٥٣٣م. وفي الفترة مابين ١٥٣٣م - ١٦٨٩م احتلت روسيا القيصرية المناطق الشمالية لبحر قزوين إضافة إلى ما يعرف الآن بجمهورية بشكيريا وتتارستان ومعظم سيبيريا والأجزاء الشرقية من كازاخستان. وفي الفترة مابين ١٦٨٩م - ١٨٠١م تم ضم الأجزاء الشمالية من البحر الأسود للحكم الروسي[1].

وفي عام ١٨٠١م طلب ملك جورجيا إيراكلي الثاني حماية الروس ضد الهجمات الإيرانية والعثمانية على دولته واستجاب قيصر روسيا لهذا الطلب، ومنذ ذلك الحين أصبحت جورجيا تحت حماية وحكم قيصر روسيا.

وفي عام ١٨٢٥م غزت قوات القيصر أذربيجان وأرمينيا اللتين كانتا تحت حكم الإيرانيين والأتراك وبحلول عام ١٨٢٨م صارتا تحت الحكم الروسي القيصري بعد أن تم طرد الإيرانيين والأتراك منهما. أما احتلال روسيا القيصرية لمنطقة شمال القوقاز الذي بدأ عام ١٧٨٥م في عهد كاترينا الثانية، فلم يكتب له النجاح إلا عام

١٨٥٩م بعد هزيمة الإمام شامل. وكانت حرب القوقاز الأولى - كما أطلق المؤرخون على التوسع الروسي في شمال القوقاز[٢]- هي أطول حرب استعمارية خاضتها روسيا القيصرية، وذلك بسبب المقاومة العنيدة والباسلة التي أظهرتها شعوب شمال القوقاز الإسلامية ضد الغزو الروسي العنصري. وكان لهذه الحرب الطويلة أثر كبير في انخفاض عدد سكان شمال القوقاز مقارنة بالمناطق الإسلامية الأخرى التي وقعت تحت الحكم العنصري الروسي والتي لم تدم فيها الحرب سوى سنوات قليلة.

وإن نجاح الإمبراطورية الروسية القيصرية في إحكام سيطرتها على شمال القوقاز، ساعد على نجاح القياصرة في احتلال الدول الإسلامية في وسط آسيا حيث إنه في الفترة مابين ١٨٥٥م-١٨٨١م تم احتلال كازاخستان بأكملها إضافة إلى المناطق الجنوبية من آسيا الوسطى.

وفي الفترة ما بين ١٨٨١م - ١٨٩٤م، كانت جميع دول آسيا الوسطى الإسلامية قد وقعت تحت الاحتلال الروسي القيصري وبالتالي فإنه بحلول عام ١٨٩٤م كانت كازاخستان وأوزبكستان وتركستان وقرغيزيا وتركمانستان تحت حكم قيصر روسيا[٣].

وهكذا، في نهاية القرن التاسع عشر، كانت مساحة الإمبراطورية الروسية نحو ٢٢ مليون كيلومتر مربع، وضمت هذه الإمبراطورية تحت حكمها حوالي ثمانين شعباً في آسيا وأوروبا ومعظمها كانت شعوباً إسلامية فشمال القوقاز وحده يضم ٣٥ شعباً مسلماً.

وعندما نشبت الثورة البلشفية الشيوعية عام ١٩١٧م، أعلنت بعض هذه الشعوب الإسلامية استقلالها. ولكن في عام ١٩٢٢م عندما انتصر الشيوعيون على الحكم القيصري، فإن روسيا الشيوعية التي أصبحت تسمى "الاتحاد السوفياتي" أعادت غزو واحتلال المناطق الإسلامية التي أعلنت استقلالها، وهكذا ورثت روسيا الشيوعية الدول الإسلامية عن روسيا القيصرية

وأضافت إلى حكمها عام ١٩٤٠م دول البلطيق وهي لتوانيا ولاتفيا وإستونيا إضافة لمولدافيا[٤].

وعندما انهار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١م أعلنت جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق استقلالها وبذلك برزت إلى الوجود الدول الإسلامية في آسيا الوسطى إضافة إلى أذربيجان في منطقة القوقاز الجنوبي.

أما بقية الشعوب الإسلامية التي كانت تحت حكم السوفيات، فإنها بقيت تحت حكم الجمهوريات التي كانت تحكمها في عهد الاتحاد السوفياتي علماً بأن أكثر جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق التي تضم أراضي المسلمين هي جمهورية روسيا الاتحادية أو الفدرالية. في نفس الوقت، فإن جورجيا كانت تضم أيضاً مناطق إسلامية ضمت إليها في عهد الحكم الشيوعي خصوصاً في عهد ستالين الذي كان زعيم الحزب الشيوعي الجورجي قبل أن يصبح رئيساً للاتحاد السوفياتي. أما مسلمو القرم فإنهم إلى عهد خروشوف كانوا تحت حكم روسيا الاتحادية، ولكن خروشوف - وهو من أوكرانيا- قام بضم منطقة شبه جزيرة القرم إلى أوكرانيا. وقد كانت شبه جزيرة القرم جمهورية ذات حكم ذاتي تحت اسم جمهورية القرم. لكن ستالين عام ١٩٤٤م قام بإلغاء الجمهورية ونفى سكانها إلى سيبيريا وآسيا الوسطى، كما هاجر عدد كبير من سكانها التتار المسلمين إلى تركيا المجاورة هرباً من بطش ستالين، وبذلك اختفت هذه الجمهورية عن الوجود وتفرق سكانها الأصليون في مختلف مناطق الاتحاد السوفياتي أو هاجروا إلى تركيا ودول أخرى وبقى قسم منهم داخلها.

كلمة القوقاز CAUCASUS هي كلمة سنسكريتية الأصل وتعني الجبال البيضاء أو الجبال الثلجية. ولعل منظر جبال القوقاز المغطاة بالثلوج خاصة في فصل الشتاء وعلى مدار العام في القمم العالية من جبال

القوقاز مثل جبال البروز وباش لام[٥] هي التي أدت إلى إطلاق كلمة القوقاز بمعناها السنسكريتي على المنطقة الواقعة مابين بحر قزوين إلى الشرق والبحر الأسود إلى الغرب. على أي حال. منطقة القوقاز، -خصوصاً القوقاز الشمالي- هي عبارة عن مناطق جبلية وسهلية مغطاة بالنباتات الخضراء والغابات الكثيفة التي تعتبر من أخصب الأراضي الزراعية بحيث أن منطقة القوقاز كانت ولاتزال بمثابة "سلة الخبز" للاتحاد السوفياتي السابق ولروسيا الإتحادية حالياً التي ورثت معظم منطقة القوقاز وبشكل خاص القوقاز الشمالي بعد سقوط الاتحاد السوفياتي.

يمكن تقسيم منطقة القوقاز إلى قسمين:

١- القوقاز الجنوبي . ٢- القوقاز الشمالي.

أما القوقاز الجنوبي فهو يضم ثلاثة كيانات سياسية هي أذربيجان وجورجيا وأرمينيا، لكن أذربيجان هي الجمهورية الإسلامية الوحيدة في هذه المنطقة . وهناك أقليات مسلمة في جورجيا وأرمينيا.

هذه الجمهوريات في القوقاز الجنوبي التي يطلق عليها اسم جمهوريات ماوراء القوقاز TRANS CAUCASUS، نالت استقلالها بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وأصبحت دولاً أعضاء في الأمم المتحدة بعد اعتراف المجتمع الدولي بها والذي جاء بسبب كونها ضمن الجمهوريات الخمس عشرة التي تألّف منها الاتحاد السوفياتي وهي:-

١- روسيا الاتحادية . ٢- أوكرانيا. ٣- بيلوروسيا (روسيا البيضاء) وهذه الجمهوريات الثلاث هي الجمهوريات السلافية نظراً لأن سكانها شعوب سلافية من حيث الأصل. ٤- لتوانيا . ٥-لاتفيا. ٦- إستونيا (دول البلطيق). ٧- مولدافيا (تقع شمال رومانيا). هذه الجمهوريات الأربع ذات أصول أوربية ولاتنتمي شعوبها عرقياً إلى الشعب السلافي. ٨- كازاخستان. ٩- أوزبكستان. ١٠- طاجكستان. ١١- تركمانستان. ١٢- قيرغيزيا.

هـذه الجمهوريات دول آسيوية إسلاميـة .
١٣- أذربيجـــــان. ١٤- جورجيـا .
١٥- أرمينيا.

ورغم أن جـمـيـع هذه الجـمـهـوريات باسـتـثناء دول البلطيق ومـولدافـيـا تم احتلالها في العهود القيصرية إلا أن روسيا الشيوعية أعادت احتلالها بعد نجاح الثورة البلشفية إذ أطاحت بالحكم القيصري في أكتوبر ١٩١٧.

في عـام ١٩٢٢م بعد أن توطدت دعـائم الحكم للشيوعيين في روسيا الاتحادية أعلن قيام الاتحاد السوفياتي رسمياً وكان يتألف من ست جـمـهـوريات فـقط هي روسـيـا الاتحادية وأوكرانيا وبيلوروسيا وجورجيا وأرمـينيـا وأذربيـجان. وفي عـام ١٩٢٩م فـصلت أوزبكسـتـان وتركـمـانسـتـان وطاجيكستان عن روسيا الاتحادية وأعلن كـونهـا جـمـهـوريات اتحادية ضمن الاتحاد السـوفـيـاتي. وفي عـام ١٩٣٨م فـصلت قيـرغيـزيا وكازاخستان أيضاً عن روسيا الاتحادية وضمّتا إلى الاتحاد السوفياتي[٦].

ثم في أثناء الحرب العالمية الثانية ضمت دول البلطيق الثلاث إضافة إلى مولدافيا إلى الاتحـاد السـوفـيـاتي، وذلك عـام ١٩٤٠م.

أما بقيـة مناطق الاتحـاد السـوفيـاتي الأخرى التي سمع بها العـالم عـبـر وسائل الإعلام بعد سقوط الاتحاد السوفياتي مثل شمال القوقاز وتترستان وبشكيريا وياقوتيا وغيـرها من المناطق والجمـهـوريات، فـإنهـا كانت تدار مباشرة من الكرملين ومن خلال الأحزاب الشيـوعـيـة التي شكلت في هذه المناطق، لكنها كانت رسمياً ضمن جمهورية روسيا الاتحادية نظراً لأن قياصرة روسيا قد احتلوها قبل قيام الثورة البلشفية . صحيح أن الجيش الأحمر بعد نجاح الثورة البلشفية أعاد احتلال معظم هذه المناطق التي أعلنت استـقـلالهـا أثناء الحرب بين القياصرة والبلاشفة[٧]، إلا أنها بقيت ضمن التركيبة السياسية لروسيا الاتحادية بينما تم فصل الجمهوريات الأخرى عنها بعد قيام الاتحاد السوفياتي رسمياً عام ١٩٢٢م.

تقع منطقة القوقاز بين قارتي آسيا وأوروبا وتعتبر الطريق البري الوحيد لأوروبا نحو آسيا والشرق الأوسط من حدودها الجنوبية الشرقية.

وفي الوقت نفسه ، فإن بحر قزوين والبحر الأسود اللذين تقع منطقة القوقاز بينهما، تصب فيهما معظم أنهار أوروبا مثل أنهر الفولجا والدون والدانوب والدنيبر والدنيستر. ثم أنهر القوقاز وبحارها تفصل أيضاً بطريق مباشر أو غير مباشر كلاً من البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه وبحر مرمره وبحر أزوف، وبالتالي فإنها حلقة وصل بحرية بين ثلاث قارات وهي آسيا وأوروبا وأفريقيا [٨].

إضافة للثروة الزراعية والحيوانية الهائلة لمنطقة القوقاز التي كانت تعتبر - كما سبق ذكره- "سلة الخبز" للاتحاد السوفياتي السابق ومن بعده لروسيا الاتحادية، فإن منطقة القوقاز - بخاصة أذربيجان وجمهورية الشيشان- غنية بالنفط، وبعد استقلال أذربيجان قد ازدادت أهمية بترول جمهورية الشيشان لكونها تزود روسيا الاتحادية بمعظم "وقود الطائرات" المدنية والعسكرية[٩].

صحيح أن بترول جمهورية الشيشان من حيث الكمية قليل مقارنة بأذربيجان أو حقول النفط في كازاخستان (حقل تنغيز) إلا أن "نوعية" بترول الشيشان ومصافي النفط فيها لاتزال ذات أهمية كبيرة لروسيا الاتحادية.

بقية مناطق شمال القوقاز وجمهورياتها لا توجد بها ثروة بترولية لكنها تبقى من الناحية الاقتصادية مهمة بالنسبة لروسيا الاتحادية. ومما يزيد أهمية القوقاز اقتصادياً أن موانىء روسيا الاتحادية على البحر الأسود - وهي منافذ التصدير البحري لها- تقع في هذه المنطقة. وتتمتع جمهورية الشيشان بوضع فريد من هذه الناحية حيث إن أنابيب تصدير النفط الأذربيجاني

وكذلك نفط كازاخستان وسيبيريا وتتارستان عبر موانئ البحر الأسود الروسية تمر بجمهورية الشيشان التي تعتبر أيضاً ملتقى طرق المواصلات البرية والحديدية بين روسيا الاتحادية ودول جنوب القوقاز[١٠].

ثم إن جمهورية الشيشان لديها كميات ضخمة من الغاز الطبيعي الذي تفتقر إليه بقية جمهوريات شمال القوقاز وتعتمد كلياً (مثل جورجيا وأرمينيا) على إمدادات البترول والغاز الطبيعي من روسيا الاتحادية التي كانت تستغل البترول والغاز الطبيعي المتوفر في جمهورية الشيشان لإبقاء الجمهوريات الأخرى تحت رحمتها من حيث مصادر الطاقة.

وقد جاءت حرب الشيشان. ضربة قاصمة للاقتصاد الروسي لا من حيث توقف أوتراجع إنتاج النفط والغاز الطبيعي في جمهورية الشيشان فقط، بل بسبب قرار أذربيجان وشركات النفط العالمية (التي وقعت معها اتفاقية استغلال وتصدير نفط أذربيجان) بناء خط أنابيب جديد لتصدير نفط أذربيجان عبر تركيا وجورجيا وأرمينا بدلاً من خطوط الأنابيب التي تمر عبر جمهورية الشيشان.

عند الحديث عن تاريخ الإسلام في منطقة القوقاز لابد من الفصل بين القوقاز الجنوبي والقوقاز الشمالي لأن انتشار الاسلام في المنطقتين كان مختلفاً من حيث الزمن والكيفية وحتى في المذهب الإسلامي الذي ساد في المنطقتين. وذلك نتيجة مجموعة من العوامل منها الموقع الجغرافي وطبيعة التضاريس ونوع القوى العسكرية التي سيطرت على المنطقتين.

موقع أذربيجان المحاذي لتركيا وإيران، جعلها نقطة اختراق الفتوحات الإسلامية لمنطقة القوقاز. وكانت مدينة دربند ذات أهمية كبيرة للفتوحات الإسلامية حيث سماها المسلمون باسم "باب الأبواب" وهي تقع على بحر قزوين أو بحر الخزر كما كان

العرب يسمّونه[١١].

وحسب المصادر التاريخية، قد وصلت الفتوحات الإسلامية إلى أذربيجان في القرن الأول الهجري، لكن انتشار الإسلام في أذربيجان وبقية القوقاز الجنوبي كان بطيئاً. وذلك لثلاثة أسباب هي:-[١٢]

إن الفاتحين العرب الذين تمرسوا بحرب الصحراء والسهول المنبسطة لم تكن لديهم خبرة في القتال بمناطق جبلية وعرة كما هو الحال في القوقاز الجنوبي.

منطقة القوقاز الجنوبي كانت تسودها عدة ديانات مثل اليهودية، وهي ديانة شعب الخزر، وهو شعب ذو أصول عرقية تركية اعتنق الديانة اليهودية وكان يسكن حول بحر قزوين في الأجزاء الشمالية منه.

أما النصرانية فكانت تنتشر في جورجيا (كرجستان) وأرمينيا وأيضاً بين شعب الأوسيت (الأستين) سكان جمهورية أوسيتيا الشمالية والجنوبية في شمال القوقاز وأيضاً بين شراكسة البحر الأسود.

بالإضافة إلي وجود الزرادشتية والفلسفة المانية الفارسية[١٣] أيضاً في أجزاء من أذربيجان.

وجود هذه الديانات والمذاهب قبل قدوم الإسلام جعل مهمة الدعوة إلى الإسلام بين شعوب جنوب القوقاز صعبة لأنها تتطلب تحول هذه الشعوب عن دياناتها.

وجود قوى عسكرية يهودية ونصرانية في القوقاز قامت بالتصدي للمسلمين وتمثلت هذه القُوى بدولة الخزر على سواحل بحر قزوين الشمالية والتي كانت تدين باليهودية إضافة للإمبراطورية الجورجية وسكان أرمينيا النصارى الذين كانت تدعمهم الدولة البيزنطية (في آسيا الوسطى) التي كانت عاصمتها القسطنطينية (إستانبول حالياً) والتي لم يستطع المسلمون الأوائل فتحها بسبب مناعة أسوارها، فتأخر فتحها إلى قيام الإمبراطورية الطورانية التركية إذ فتحها السلطان العثماني محمد الفاتح سنة ٨٥٧هـ و(١٤٥٣م) وكان لاختراع البارود وظهور

مـايسـمى "المدفـعـيـة" في تلك الحـقـبـة التاريخية أثر كبير في نجاح السلطان حيث لم تعـد هناك حـاجـة لتـسلق أسـوارها وإنما تقوم المدفعية بإحداث فتحات في الأسوار فيدخلون من خلالها.

والواقع أن فتح القسطنطينية مع سقوط معقل الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية كان له أثر كبير في حفز الإمبراطورية الروسية لاحتلال القـوقـاز في مراحل لاحقة. وذلك لعدة أسباب منها: استخدام القوقاز لتكون منطقـة عـازلة بين الإمبـراطورية الروسيـة وجارتيها الإسلاميتين تركيا وإيران اللتين كانتا أكبر قوتين في العالم الإسلامي عندما بدأ الغـزو الروسي لمنطقـة القـوقاز في عـهـد بطرس الأكبر عام ١٧٢٢م الذي احتل دربند وبذلك وصل الروس لأول مـــرة إلى بحـــر قزوين.

وفي الوقت نفـسـه كـانت اسـتـعـادة القـسـطنطينيـة، عـاصـمـة النصـرانيـة الأرثوذكسية السابقة من أيدي المسلمين، أحد الأهداف الرئيسة لكاترينا الثانية في غزو منطقة القوقاز بشكل منظم في نهاية القرن الثامن عشر[١٤].

إنّ فتح العثمانيين مدينة القسطنطينية التي تتـصـل عـبـر مـضـيق الدردنيل (البسفور) بالبحر الأسود أسهم في سهولة اتصـالهم بشبـه جزيرة القرم التي كـانت تحكمـهـا سـلالة تتـرية مـسلمـة وكـان للعثمانيين وتتار القرم دور كبير كما سيأتي في نشر الإسلام في شمال القوقاز وغربها وكـذلك في إعـاقـة الزحف الروسي لمنطقـة القـوقـاز وبالتـالي حـماية الإسلام في تلك المنطقة فإن الإسلام كان قد وصل إليها منذ القرن السابع الميلادي حين بدأت الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية في عـهـد الخليفـة العـادل عـمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وصـول الإسـلام إلى القـوقـاز وآسـيـا الوسطى من خلال الفتوحات الإسلامية لم يكن ممكناً إلا بالقضـاء على الإمبراطورية

الفارسية (الساسانية) والإمبراطورية الرومانية التي كان مركزها مدينة القسطنطينية.

معركة اليرموك كانت المعركة الفاصلة التي أنهت الحكم الروماني للشام لكن الإمبراطورية لم تسقط حيث بقيت القسطنطينية منيعة على المسلمين حتى عهد الدولة العثمانية.

أما الإمبراطورية الفارسية فقد انهزمت بعد سلسلة من المعارك الفاصلة في العراق وإقليم خراسان وانتصار المسلمين في معارك القادسية ونهاوند على قوات يزد جرد الثالث مما أدى إلى سقوطها وقيام الحكم الإسلامي في أقاليمها المترامية الأطراف. وذلك مهد الطريق لإرسال الفتوحات الإسلامية إلى منطقة القوقاز الجنوبي حيث وصل المسلمون إلى بحر قزوين وإلى حدود مايسمى الآن بأذربيجان التي ترتبط بإيران بحرياً وبرياً.

وحسب مصادر التاريخ الإسلامي، فإن المسلمين بقيادة القائد المسلم عبد الرحمن بن ربيعة تمكنوا من احتلال "دربند" أو باب الأبواب - كما سمّاها المسلمون الأوائل- التي تقع على بحر قزوين أو بحر الخزر وذلك عام ٦٤٣م[١٥]. وفي الوقت نفسه، تمكن المسلمون بقيادة سراقة بن عمرو من فتح مدينة تفليس عاصمة جورجيا حالياً.

وهكذا فإن تاريخ المسلمين في القوقاز يبدأ بوصول الفتوحات الإسلامية إلى أذربيجان وجورجيا وأرمينيا، ولكن وجود دولة الخزر القوية على بحر قزوين ومقاومتها الشديدة للمسلمين في أذربيجان لسنين طويلة أدى إلى تأخر انتشار الإسلام داخل أذربيجان كما أدت هزيمة المسلمين أمام الخزر عام ٦٥٢م في معركة كبيرة إلى ضعف سيطرة المسلمين على جورجيا وأرمينيا النصرانية، وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه تمكن القائد المسلم حبيب بن مسلمة من فتح تفليس عاصمة جورجيا للمرة الثانية لكن لم يتمكن من فتح بقية مناطق جورجيا وأرمينيا.

وفي العهد الأول للدولة الأموية مابين أعوام ٧٣٤ - ٧٤٤م، تمكن القائد المسلم مروان بن محمد من الانتصار على دولة الخزر في أذربيجان والتي كانت تسمى عند المسلمين بأرض أران. وبعد ذلك انتشر الإسلام بسرعة في أنحاء أذربيجان، وأصبحت مدينة دربند قلعة المسلمين الحصينة التي تنطلق منها الحملات العسكرية الإسلامية باتجاه الداغستان، وبدأ انتشار الإسلام في مناطق مختلفة منها، لكن في الوقت نفسه بقيت الديانات الأخرى مثل النصرانية واليهودية والمجوسية لها حضور بارز فيها، وبالتالي فإن «التسامح الديني» ظل الطابع المميز للوضع الديني في منطقة الداغستان ففي جنوب الداغستان سمح حاكم تبارسان للديانات الثلاث الرئيسة (الإسلام والنصرانية واليهودية) كما ظلت مناطق جنوب وسط الداغستان حيث يعيش اللزغيون Lezgins بدون ديانة[١٦].

أما شعب الأفار (موطن الإمام غازي محمد والإمام شامل) في غرب الداغستان فكان يحكمه أمير محلي نصراني لكن رعاياه كانوا في معظمهم وثنيين وأقلية ضئيلة يعتنقون الزرادشتية. وأما شمال الداغستان الذي كان تحت سيطرة دولة الخزر، فإن اليهودية كانت فيه الديانة السائدة فيه مع بقاء النصرانية والإسلام لعدم معارضتهما حيث تركت للسكان حرية العقيدة.

أما شعوب شمال القوقاز الأخرى التي لم يصلها الفتح الإسلامي فقد بقيت على دياناتها ومعتقداتها القديمة. فعلى سبيل المثال فإن شعب الألن Alans وهم أجداد سكان أوسيتيا الشمالية والجنوبية (شعب الأستين) كان معظمه يتبع الديانة النصرانية الأرثوذكسية. أما شعوب القبارطاي والشراكسة في شمال غرب القوقاز فإنهم كانوا وثنيين مع وجود أقلية نصرانية بينهم. وظل الشعب الأبخازي على سواحل البحر الأسود على الديانة النصرانية أو الوثنية التي كانت سائدة بينهم مع دفعه الجزية للمسلمين.

أما الشيشان فقد ظلوا بدون ديانة رغم أن عدداً قليلاً منهم كانوا قد أسلموا من خلال اتصالهم بالشعوب الداغستانية التي قد سبقتهم إلى الإسلام[١٧].

بقي الإسلام قوياً في أذربيجان وبقية مناطق الداغستان المحاذية لها، لكن في نهاية العصر العباسي عندما بدأت الخلافة الإسلامية تضعف، فإن الحكم الإسلام في تلك المناطق أيضاً ضعف، وتفككت المنطقة إلى دويلات صغيرة، لكن قيام الدولة السلجوقية التي نجحت في السيطرة على إيران وخوارزم في آسيا الوسطى، ساعد على إعطاء دفعة قوية للإسلام في منطقة القوقاز، حيث إن سيطرة السلاجقة على طرق التجارة الرئيسية على بحر قزوين وآسيا الوسطى وتوفيرها الأمن للقوافل ساعد على انتشار الإسلام في القوقاز من خلال الاتصال بين القوافل التجارية التي كانت تتنقل بين آسيا الوسطى والقوقاز، وهناك عاملان ساهما بدرجة كبيرة في نجاح انتشار الإسلام في القوقاز وبوجه خاص في الداغستان هما[١٨]:

١- النظام العشائري القبلي الذي كان سائداً في مناطق الداغستان تحول في القرن العاشر الميلادي إلى نظام إقطاعي يقوم فيه الأمير أو الحاكم بفرض سيطرته على رعاياه مباشرة بغض النظر عن عشائرهم وقبائلهم والكلمة الأولى والأخيرة في الإمارة هي للحاكم، وظهرت في الداغستان زعامات إقطاعية محلية قوية مثل النوتزال Nutzal (لقب الحاكم) في أفاريا والعصمية Usmiat في مقاطعة كيتاك Kaytak حيث يعيش شعب الدارغ Dargin والشمخالة Shamkhalat في منطقة غازي قمق بأواسط الداغستان والمعصومة Masu-mat في تيارسان في جنوب الداغستان حيث تعيش قبائل اللزغيين.

هذا النظام الأميري أو الإقطاعي في الحكم سهل عملية انتشار الإسلام في الداغستان انطلاقاً من القول "الناس على دين ملوكهم" حيث إن هؤلاء الأمراء بنهاية

القرن الحادي عشر كانوا قد اعتنقوا الإسلام.

٢- خلال هذه الحقبة ، اختفت الأحرف الآرامية والباسلية والألبانية التي كانت تستخدم لترجمة اللغات المحلية وحلّت مكانها الأحرف العربية التي بقيت منذ ذلك الوقت الوحيدة لترجمة التراث الأدبي والتاريخي في هذه المناطق إلى حين سقوط القوقاز تحت الحكم الروسي القيصري ثم الشيوعي حيث أصبحت الروسية هي اللغة الرسمية والأحرف السريالية هي المستخدمة في الكتابة.

وبتأثير هذين العاملين فإن مناطق وسط الداغستان حيث يعيش شعب الدارغين Dargin وشعب اللاك Lak ، اعتنقت غالبيتها الإسلام مابين نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر، كما انتشر الإسلام بشكل واضح في شمال وغرب الداغستان.

وبالمقابل، فإن المناطق التي لا تقع ضمن طريق القوافل التجارية في المناطق المحاذية للداغستان مثل مناطق الشيشان والأنجوش احتفظت بطابعها السياسي القائم على العشائرية وحكم القبلية Clanic Society وظلت على ديانتها القديمة وهي الوثنية[١٩].

رغم أن اجتياح المغول للعالم الإسلامي في آسيا الوسطى وآسيا الصغرى وبلاد الشام، أدى إلى سقوط الدويلات الإسلامية في هذه المناطق إلا أنه بالنسبة للقوقاز، فإن اجتياح المغول لروسيا وأوكرانيا وجنوب القوقاز (أذربيجان وجورجيا وأرمينيا) كان بداية حقبة نشر الإسلام في شمال القوقاز وأذربيجان، فقد أدى ذلك إلى إرساء قواعد دولة خانية القرم في شبه جزيرة القرم التي كان يحكمها سلالة من القبيلة الذهبية The Golden Horde[٢٠].

هذه الخانية كان لها دور كبير في نشر الإسلام في شمال القوقاز وداغستان كما أنها وقفت سداً منيعاً أمام محاولات الإمبراطورية الروسية التي قامت لاحقاً في

موسكو وأوكرانيا

وفي عام ١٢٥٨م أسلم الخان بيريكي Berke زعيم دولة القرم ذات الأصول التتارية والمنغولية، ورغم أن خلفاءه عادوا لديانتهم البوذية إلا أنهم لم يضطهدوا المسلمين من رعيتهم، وسمحوا لهم بحرية العبادة ، بل عاملوهم بدرجة أفضل من بقية المواطنين. وفي عام ١٣١٣م تقلد حكم خانية القرم الخان أوزبك Ozbek الذي كان مسلماً وكان هذا الحدث نقطة تحول كبيرة لصالح الإسلام حيث إن قبائل النوغاي التي كانت تسكن في منطقة الفولجا المحاذية لشمال الداغستان وأذربيجان عملوا في نشر الإسلام في مناطق الشراكسة وقبارطيا وبلاد الشيشان.

انتشر الإسلام بشكل شبه كامل في أذربيجان والداغستان جاء في عهد تيمور خان Timur Khan، حيث إن غزو هذا الفاتح العظيم لأذربيجان والداغستان عام ١٣٨٥م أرسى دعائم الإسلام بشكل نهائي في هاتين المنطقتين، فقد أبدى تيمور خان اهتماماً شخصياً بالقضاء على الديانات الأخرى ومنعها في مناطق حكمه. ولأول مرة أصبح جميع شعب اللاك في أواسط الداغستان مسلمين وأصبحت عاصمتهم غازي قمق Kazi-Kumukh هي حصن الإسلام في الداغستان . ومن خلال نشاط الدعاة من شعب اللاك. وصل الإسلام إلى أجزاء بلاد الشيشان المحاذية لداغستان، كما قام هؤلاء الدعاة بنشر الإسلام بين قبائل الكموك التي كانت تدين بالبوذية وتنشرها بين مناطق مختلفة من شمال الداغستان وأذربيجان.

في الوقت نفسه سدد تيمور خان ضربة قوية للنصارى في شمال القوقاز إذ قضى على إمبراطورية شعب الألن Alans التي كانت قائمة في وسط شمال القوقاز وكانت تدين بالنصرانية وتعمل على نشرها في شمال القوقاز. وشعب الألن هم أجداد شعب الأوستين سكان جمهورية أوسيتيا الشمالية حالياً وتعتبر الجمهورية النصرانية الوحيدة حالياً في شمال القوقاز.

أما سكان مقاطعة أوسيتيا الجنوبية التي تتبع حالياً جورجيا فهم أيضاً أحفاد شعب الآلن وكانوا يؤلفون دولة واحدة مع بقية شعب الأستين قبل أن يتم فصلهم في عهد الحكم السوفياتي.

أسلم شعب اللاك ومعظم شعب الكايتاك Kaytak في عهد تيمورخان وتبعه لاحقاً شعبا الأفار واللزغيين.

أما شعوب الأندي Andi والديدو Dido في الداغستان فلم تعتنق الإسلام إلا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. وقد كان لدولة جورجيا النصرانية دور كبير في تأخير انتشار الإسلام في الداغستان وبقية شمال القوقاز.

ولما انحسر المد المغولي عن منطقة القوقاز، كان الإسلام قد أصبح فيها ديانة قوية الجذور، وكان لزعماء المغول الذين اعتنقوا الإسلام دور كبير في انتشار وتقوية العقيدة الإسلامية في هذه المنطقة وشبه جزيرة القرم[٢١].

في نهاية القرن الخامس عشر، ظهرت قوتان إسلاميتان كبيرتان في منطقة القوقاز هما :الدولة العثمانية والدولة الصفوية في إيران. وهاتان الدولتان القويتان تنافستا في التوسع في منطقة القوقاز. ونشاط تركيا الرئيس كان في منطقة البحر الأسود وشمال غرب القوقاز، بينما انحصر نشاط الدولة الصفوية في منطقة بحر قزوين وأذربيجان، وكلتاهما امتدت أطماعهما إلى جورجيا وأرمينيا. وعلى أيدي الأتراك الذين حالفوا خانات القرم، انتشر الإسلام بين شراكسة البحر الأسود وفي أبخازيا، بينما عمل خانات القرم على نشر الإسلام بين قبائل الشراكسة في وسط وغرب شمال القوقاز التي تضم شعوب البلقار والقبارطاي والقراشاي والأوبيخ والبزادوغ ولما كان الأتراك أهل السُنّة على المذهب الحنفي، فإنه في بداية القرن السادس عشر، أصبح شراكسة البحر الأسود وشبه جزيرة القرم

سنيين على المذهب الحنفي مثل الأتراك.

أما الداغستان التي لم تصلها الجيوش التركية ولم تخضع للأتراك إلا اسمياً فقد بقيت على المذهب الشافعي، فإن الإسلام قد وصلها منذ القرن السابع الميلادي وعلى المذهب الشافعي.

أما إيران، فقد احتلت دربند وشيرفان في أذربيجان عام ١٥٣٨م، وكان هذا الاحتلال الإيراني الصفوي بداية انتشار المذهب الشيعي في أذربيجان، وتوطد في عهد نادر شاه الذي قام بتوحيد إيران التي مزقتها الحروب الداخلية ثم هزم الأتراك في أذربيجان، واحتل أيضاً قندهار وبعض مناطق الهند عام ١٧٣٩م. ورغم أن القوات الروسية بقيادة القيصر بطرس الأكبر كانت قد احتلت عام ١٧٢٣م باكو ودربند ومشيرخان وحتى مقاطعات غيليان Ghilli-an ومازندران Mazanderan وأستراباد astrabad الفارسية داخل حدود إيران لكن لما توفي بطرس الأكبر وتسلمت الإمبراطورة آن Anne الحكم عام ١٨٣٠م أبرمت روسيا - بسبب حرب دخلت فيها مع الأتراك عام ١٧٣٥م - اتفاقاً سياسياً مع نادر شاه يعرف بمعاهدة غاندجة Gandja . سحبت الإمبراطورة بموجبها القوات الروسية من الأراضي الفارسية وتنازلت للسلطان نادر شاه عن أذربيجان. وبذلك توطد الحكم الإيراني في أذربيجان وبالتالي أصبح المذهب الشيعي هو السائد فيها[٢٢].

وقد حاول نادر شاه احتلال بعض مناطق الداغستان المتاخمة لأذربيجان لكن قواته منيت بهزيمة نكراء على أيدي سكان الجبال في الداغستان[٢٣].

وإذ لم يتمكن الأتراك ولا الإيرانيون من احتلال الداغستان وما جاورها من أقاليم في شمال شرق القوقاز مثل الشيشان والأنجوش والقبارطاي والأستين والبلقار، فإن شعوب هذه المناطق بقيت على دين الإسلام والمذهب الشافعي كما بقيت النصرانية ديانة الأستين والقبارطاي والبلقار. أما الشيشان والأنجوش فقد ظلوا بغير ديانة حتى ذلك الوقت.

الموقع الاستراتيجي الهام لمنطقة القوقاز كان دائماً من أهم الأسباب التي أدت إلى اهتمام قياصرة روسيا بالقوقاز منذ عهد إيفان الرهيب وبطرس الأكبر، وهذا الاهتمام اختلفت أهدافه وأسبابه عبر التاريخ حسب رغبات القيصر الروسي الحاكم، ونجمل فيما يلي الأهداف والاهتمامات التي أدت مجتمعة إلى رغبة القياصرة الروس في ضم القوقاز إلى حكمهم[٢٤].

١- السيطرة على القوقاز تعطي روسيا القيصرية منطقة أمامية عازلة لحدودهم الجنوبية فإنها تفصل روسيا القيصرية عن إيران الصفوية في الجنوب الشرقي، وتركيا العثمانية في الجنوب الغربي.

٢- السيطرة على القوقاز تعطي الروس قاعدة انطلاق رئيسة نحو الهند ذات الأهمية التجارية والجغرافية الكبيرة لأي إمبراطورية عسكرية ذات نزعة توسعية.

٣- السيطرة على القوقاز تسهل الانطلاق نحو آسيا الصغرى والشرق الأوسط لإعادة احتلال القسطنطينية والقدس.

القيصر إيفان الملقب بالرهيب[٢٥] اهتم بالقوقاز لأسباب توسعية بحتة، بينما القيصر بطرس الأكبر أبدى اهتمامه بها للسببين الأولين،أما القيصرة كاترينا الثانية وابنها القيصر بول الأول فإن القوقاز كانت مهمة لهما كنقطة انطلاق لاستعادة القسطنطينية وإعادة إحياء الإمبراطورية البيزنطية القديمة فيها وبالتالي إحياء الكنيسة الشرقية أي الأرثوذكسية التي كانت روسيا القيصرية تتبعها. أما القيصر ألكسندر الأول ابن القيصر بول وحفيد كاترينا الثانية فلم يبد اهتماماً بالهند بشكل علني ولكن أظهر حلمه ورغبته في أن يرى «الصليب قد تفوق على الهلال» أي انتصار النصرانية على الإسلام من خلال

استعادة القسطنطينة والقدس من أيدي المسلمين وحماية نصارى آسيا الصغرى وشرق أوروبا والشرق الأوسط من وحشية واضطهاد الأتراك العثمانيين وإنقاذ هؤلاء من حكم المسلمين وضمهم إلى بقية روسيا كما فعل والده مع جورجيا عام ١٨٠٠م حين استنجد به ملك جورجيا ضد إيران الصفوية التي اجتاحت تفليس عاصمة جورجيا عام ١٧٩٥م[٢٦].

ورغم أن الشروع الحقيقي في ضم القوقاز للإمبراطورية القيصرية بدأ في الربع الأول من القرن الثامن عشر في عهد القيصر نيكولاس، تم الضم النهائي لمنطقة القوقاز لأملاك روسيا القيصرية عام ١٨٥٩م في عهد القيصر ألكسندر الأول.

وقد بدأ التمهيد لذلك في عهد بطرس الأكبر من خلال قيامه بحملة في بحر قزوين واحتلال دربند كما سيأتي ذكره وتولى القياصرة من بعده إتمام بناء القلاع والحصون العسكرية على امتداد نهر التيرك الذي يفصل روسيا القيصرية عن منطقة القوقاز.

وهذه القلاع كانت القواعد المتقدمة للقوات الروسية التي شرعت في هجومها الشامل على منطقة القوقاز في الربع الأول من القرن الثامن عشر.

وحتى تكون الصورة واضحة لأحداث القرن التاسع عشر الذي نجحت فيه روسيا القيصرية في احتلال منطقة القوقاز، فإن ذكر خلفية تاريخية لمراحل التوغل الروسي في منطقة القوقاز ووسائل هذا التوغل سوف يكون مفيداً في فهم أحداث حرب القوقاز الأولى التي نشبت في القرن التاسع عشر وانتهت بنجاح القياصرة الروس في احتلال منطقة القوقاز.

يتبع الشعب الروسي العرق السلافي المنتشر في أوربا الشرقية وبشكل خاص في صربيا وبلغاريا، وقدشكل السلاف قديماً مملكة صربيا الكبرى.

أول دولة سلافية روسية نشأت فيما يسمى الآن بجمهورية أوكرانيا، إلا أنها

قضى عليها المغول والتتار في العصور الوسطى. أما دولة الروس الحالية -وهي روسيا الاتحادية- فقد نشأت حول مايعرف الآن بمدينة موسكو عاصمة روسيا الاتحادية والاتحاد السوفياتي السابق[٢٧].

هذه الدولة الروسية التي نشأت حول موسكو اشتد ساعدها بمرور السنين وقامت بالتوسع في أربعة اتجاهات هي[٢٨]:

١- الشمال، حيث استطاعت إخضاع القبائل الفنلندية ومنطقة البلطيق.

٢- الشرق، حيث توسع الروس عبر الأراضي الأسيوية وسيبيريا بحيث وصلت في القرن السابع عشر إلى المحيط الهادي.

٣- الغرب، باتجاه بولندا.

٤- الجنوب، باتجاه القوقاز وشبه جزيرة القرم والبحر الأسود.

وعند حلول القرن التاسع عشر كانت الاجتياحات الروسية في الأجزاء الشمالية والشرقية والغربية قد تمت بنجاح كبير ودون أي مقاومة تذكر بحيث إن بولندا وبروسيا (الاسم القديم لألمانيا) كانت تحت حكم أمراء إما يمتُّون بصلة القرابة إلى أسرة رومانوف الحاكمة في روسيا أو أمراء يقوم قيصر روسيا باختيارهم وتعيينهم نواباً له في بولندا وبروسيا.

التوسع باتجاه الجنوب فقط استغرق وقتاً أطول، رغم نجاح الروس في ضم جورجيا في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، ولكنها فشلت في ضم منطقة القوقاز الشمالي وشبه جزيرة القرم غرب البحر الأسود مع تمكنها أكثر من مرة من احتلال القوقاز الجنوبي، أي أراضي مايعرف الآن بجمهورية أذربيجان وجمهورية أرمينيا، وأيضاً الأجزاء الشرقية المحاذية لبحر قزوين في جمهورية الداغستان، إلا أنها كانت تضطر إلى الانسحاب من هذه المناطق لأسباب مختلفة.

التوسع الروسي جنوباً كان بطيئاً - كما ذكرنا سابقاً- لأن المناطق الجنوبية المحيطة بروسيا كانت تقطنها قبائل وشعوب إسلامية ونصرانية وبوذية، قاومت في بادئ

الأمر التوسع الروسي في بلادهما، ولكنها في النهاية خضعت للدولة الروسية، بحيث إنه بحلول القرن التاسع عشر كانت الدولة الروسية قد أقامت حزاماً من المستوطنات والقلاع العسكرية من أقصى الشرق (أي من بحر قزوين) إلى أقصى الغرب (أي البحر الأسود) وذلك على امتداد حدود التماس بين روسيا القيصرية ومنطقة القوقاز الشمالي، وحدود التماس هذه كانت نهر التيرك.

أما الشعوب التي كانت تسكن الأراضي الواقعة في الحدود الجنوبية والشرقية لروسيا القيصرية فإن شعوب الكوزاك (القوزاق) Cossacks والتتار والمغول (قبائل الكالموك والنوغاي) كانت أول من خضع للدولة الروسية، بل أسهم قسم منها -وبالتحديد الكوزاك- في نجاح الروس في إقامة قواعد عسكرية لها على شكل مستوطنات وقلاع عسكرية استُخدمت لانطلاق القوات الروسية باتجاه الجنوب.

وفي الوقت نفسه دخلت الشعوب النصرانية القاطنة في جورجيا تحت مظلة الحكم القيصري في أولى سنوات القرن التاسع عشر، وقامت جورجيا بدورٍ بارز في الاجتياحات الروسية اللاحقة في القوقاز الشمالي والجنوبي، والمستوطنون الألمان الذين عملت روسيا علي هجرتهم إلى الأراضي القريبة من القوقاز حول نهر الفولجا، قاتلوا مع روسيا القيصرية في منطقة القوقاز وكبار جنرالات قياصرة الروس الذين حاربوا في منطقة القوقاز كانوا من الألمان.

ونظراً لأهمية دور هذه الشعوب في نجاح الروس النهائي في ضم القوقاز الشمالي والجنوبي إلى الدولة الروسية القيصرية فإن إعطاء خلفية موجزة عن هذه الشعوب سيكون مفيداً[٢٩].

يحيط قدر كبير من الغموض بأصل القوزاق، ولكن هناك اتفاق على أن أول ظهور لهم في التاريخ كان بعد الغزو المغولي والتتاري لروسيا ودول أوروبا

الشرقية، حيث ظهر القوزاق على شكل جماعات حرة متنقلة لاتتقيد بقانون ولاتخضع لأي سلطة، وذلك في المناطق الجنوبية والشرقية من روسيا وبولندا. وهناك رأي يقول بأن القوزاق هم من السلاف مع خليط من البولنديين واللتوانيين (سكان جمهورية لتوانيا على بحر البلطيق) إضافة لبعض القبائل القوقازية الأصل التي كانت تعيش على ضفاف نهر التيرك الذي يفصل منطقة القوقاز عن روسيا.

شعوب القوزاق، رغم أنها في البداية كانت تتنقل باستمرار في جنوب وشرق روسيا وبولندا وتعيش على السلب والنهب وغزو للشعوب المجاورة، بدأت تستقر تدريجياً علي ضفاف أنهر الفولجا والدون والأورال، واشتغلوا بالزراعة والري والصيد مع الاحتفاظ بمهنتهم الأصلية، وهي مهاجمة الشعوب المجاورة للنهب والسلب.

وعندما ظهرت الدولة الروسية لأول مرة حول موسكو، وبدأت في التوسع تدريجياً باتجاه الجنوب والشرق، خضعت شعوب القوزاق للحكم الروسي، لكن اسمياً فقط، حيث بقيت أماكن إقامتهم على ضفاف الأنهر غير خاضعة مباشرة للحكم الروسي. أما قوزاق أوكرانيا فإنهم كانوا يخضعون لبولندا قبل أن تخضع بولندا بدورها لروسيا القيصرية، وبالطبع خضع قوزاق أوكرانيا بدورهم لحكم موسكو.

ظهرت شعوب قوزاقية أخرى حول نهر الدينيبر، كانت تسمى بالزابورزيين Zapo-rozians، وكانوا أيضاً خليطاً من قبائل أوكرانية وبولندية ولتوانية.

ونظراً إلى مهارة القوزاق في عمليات الرصد والتجسس والحراسة، إضافة إلى شدة بأسهم في القتال وشجاعتهم ومهارتهم في استخدام السيف وركوب الخليل، فإن كسب ولائهم كان له أهمية كبيرة لقياصرة موسكو وأباطرتها، وذلك لاستخدامهم لاحقاً كرأس حربة في إخضاع منطقة القوقاز وشبه جزيرة القرم، حيث كان هناك شعوب وقبائل لاتقل شجاعة وبأساً عن القوزاق، كما أنّ خانية القرم كانت تحكمها سلالة مغولية مسلمة

ولديها جيش قوي ومتمرس في القتال وكانت تتبع اسمياً الدولة العثمانية لكونها مركز الخلافة الإسلامية.

إن عملية إخضاع القوزاق لقيصر موسكو لم تكن سهلة فإنهم كانوا ينفرون من أي قوانين أوقيود تحد من حريتهم، ولم يكونوا يرحبون بالتبعية لأي قوة خارجية . ولهذا السبب احتاج القياصرة الروس إلى عدة حملات عسكرية على مدار عقود من السنين قبل أن يتمكنوا من إخضاعهم لحكمهم. فقد حاربهم بطرس الأكبر، وانتصر عليهم في معركة بولتوا (Pultova) حيث هاجر قسم من القوزاق بعد هذه الهزيمة إلى شبه جزيرة القرم، لكنهم عادوا إلى بلادهم في عهد الإمبراطورة آن (Anne)، أدى قدوم المستوطنين الروس بأعداد كبيرة إلى المناطق التي كان القوزاق يعتبرونها بلادهم إلى حدوث نقمة عارمة بين القوزاق، تطورت إلى ثورة كبيرة في عهد كاترينا الثانية التي تعاملت مع ثورتهم بقسوة بالغة فأرسلت الجنرال بوتمكين للقضاء عليها وقد تمكن من ذلك. وبالتالي خضع القوزاق مرغمين لحكم كاترينا الثانية، وبمرور الوقت اندمجوا ضمن إمبراطورية كاترينا، وساعد على ذلك عنصر الديانة المشتركة بين الروس والقوزاق وهي النصرانية الأرثوذكسية.

اندماج القوزاق تحت الحكم الروسي كان بداية التحرك الروسي باتجاه شمال القوقاز، إذ قامت كاترينا باستخدام القوزاق في بناء قلاع وحصون على امتداد نهر التيرك الفاصل بين حدود روسيا القيصرية ومنطقة شمال القوقاز، وتولى القوزاق بعد إتمام بناء هذه القلاع والحصون، عملية الدفاع عنها ضد هجمات شعوب شمال القوقاز التي بدأت تدرك نوايا روسيا القيصرية التوسعية باتجاه بلادهم من خلال إقامة هذه القلاع العسكرية على نهر التيرك، ونقل القوزاق بأعداد كبيرة من مناطق الفولجا والدون والدنيبر وبحر أورال ليقيموا في هذه القلاع والحصون التي كانت بمثابة الخط الأمامي ورأس الحربة لروسيا القيصرية في غزوها اللاحق لمنطقة شمال القوقاز.

في السهول شبه الصحراوية إلى الغرب من نهر الفولجا كانت تعيش منذ أواسط القرن السابع عشر شعوب هاجرت من تركستان الصينية ومن الناحية العرقية كانت شعوباً مغولية وتتكلم اللغة المنغولية وتدين بالديانة البوذية. هذه الشعوب كانت عبارة عن قبائل رحّل تسكن الخيام وتعيش على رعاية وتربية الماشية وكانت شعوباً مسالمة، فأصبحوا حلفاء للروس في عهد بطرس الأكبر الذي عقد معهم اتفاقاً لحراسة حدوده الشرقية، وبمرور السنوات تحوّل هذا التحالف تدريجياً إلى "تبعية" ولكن بقوة السلاح، حيث قامت كاترينا الثانية بإلغاء خانية الكالموك نهائياً عام ١٧٧١م وضمتها لممتلكات روسيا القيصرية إلا أن معظم شعب الكالموك رفض التبعية للروس، وقام بهجرة جماعية باتجاه الشرق نحو الصين، لكنهم أصيبوا بكارثة مروعة خلال هذا النزوح الجماعي، فهلك آلاف منهم برداً وجوعاً وعطشاً بسبب طول المسافة التي قطعوها نحو الصين و البالغة نحو ثلاثة آلاف ميل، ثم إن القوات الروسية أرسلت قوات عسكرية لتعقب الكالموك ومنع هجرتهم إلى الصين، وتولت هذه القوات حصد مؤخرة النازحين الكالموك بالمدافع ورغم أن غالبية الكالموك نجحوا في الهجرة إلى الصين بقي قسمٌ منهم على الضفة الغربية لنهر الفولجا وساحل بحر قزوين. وجمهورية الكالموك الحالية وعاصمتها "أليستا" هي مكان تجمع شعب الكالموك الذي بقي في روسيا الاتحادية. والجدير بالذكر هنا أن الكثيرين يحسبون الكالموك من شعوب القوقاز، وهذا ليس صحيحاً، فلا الكالموك من شعوب شمال القوقاز ولا القوزاق، وذلك على الرغم من أن كثيراً منهم يعيشون الآن في جمهوريات شمال القوقاز، فهناك عدد من الكالموك في الداغستان، وعدد من القوزاق في جمهورية الشيشان[٣٠].

هناك عدة آراء في أصل شعب النوغاي

لكن هم أنفسهم يقولون بأنهم فرع من القبيلة الذهبية Golden Horde وهي قبيلة الفاتح المغولي جنكيز خان، ورأي يقول بأنهم من نسل شعوب البتشنيغز Petche-negs والبولوفتسي Polovtsi وهي شعوب مغولية الأصل، لكنها قدمت إلى أوروبا في وقت مبكر، وكانوا أقل خشونة وميلاً إلى الحرب، وتنقصهم الشجاعة التي كان يتمتع بها محاربو جنكيز خان من القبيلة الذهبية. وبغض النظر عن أي الرأيين أكثر صواباً، فإن شعوب النوغاي هي شعوب إسلامية، وكانت تسكن إلى الغرب من شعوب الكالموك، وبالتحديد حول أنهار الكوبان والمانيتش والدون، وقامت كاترينا "العظيمة" بتهجيرهم إلى المناطق الواقعة بين نهر الفولجا وجبال الأورال، لكن بعض النوغاي التجأ إلى بلاد الشراكسة، وقسم منهم استقر في شبه جزيرة القرم، قبل أن يهاجر مع تتار القرم إلى تركيا لما سقطت شبه جزيرة القرم في نهاية القرن الثامن عشر تحت حكم روسيا القيصرية.

العلاقة بين القياصرة الروس وحكام بروسيا (اسم ألمانيا قديماً) كانت دائما قوية لأن بروسيا كانت تحكمها -قبل حروب نابليون في أوربا- أسرة ترتبط بقرابة الدم مع أسرة رومانوف القيصرية . ومن هنا قامت كاترينا الثانية عام ١٧٦٢م بإصدار مرسوم تلاه مرسوم آخر عام ١٧٦٣م سمحت من خلالهما للألمان بالهجرة إلى روسيا القيصرية والعمل فيها، إما أطباء وإداريين ومزارعين في المناطق التي ضمتها للإمبراطورية الروسية، أو جنوداً وضباطاً في القوات القيصرية الروسية. وبالفعل هاجر عدد كبير من الألمان إلى روسيا القيصرية، واشتغلوا بجميع المهن، ومن ضمنها العسكرية، فكان ألمع جنرالات القياصرة الروس في حربهم ضد نابليون وتركيا وإيران وشعوب شمال القوقاز، من أصل ألماني. وقد منحت كاترينا الثانية المهاجرين الألمان أراضي الكالموك على نهر الفولجا، كما تم توطين الألمان على امتداد

القسم الجنوبي الشرقي لروسيا القيصرية، أي من أوكرانيا إلى جبال الأورال لكن المنطقة التي جمعت غالبية المهاجرين الألمان في روسيا القيصرية كانت منطقة الفولجا التي كانت تسمى في بداية الحكم السوفياتي جمهورية الفولجا الألمانية السوفياتية الاشتراكية[٣١]؛ ولكن تم القضاء عليها عام ١٩٣٩م بعد نشوب الحرب العالمية الثانية ودخول روسيا الحرب ضد هتلر.

يعتبر الشعب الجورجي من الشعوب الأصلية التي سكنت القوقاز الجنوبي منذ القدم ،فترجع أصول شعب جورجيا إلى شعب الكارتفيل Kartvel القديم الذي استوطن في منطقة القوقاز منذ آلاف السنين.

الشعب الجورجي يدين بالنصرانية وقد اعتنقها على يد الإمبراطور جوستنيان الثاني إمبراطور بيزنطة. وقد كانت جورجيا في وقت من الأوقات إمبراطورية متماسكة قوية وكان العرب يسمونها "كرجستان" بينما سماها الإغريق بإقليم "إيبيريا"، وقد وصلت إلى ذورة مجدها في عهد الإمبراطورة "تمارا" Tamara (١١٨٤ - ١٢١٢م) التي شمل حكمها معظم القوقاز الجنوبي وأجزاء من القوقاز الشمالي فخضع لها في شمال القوقاز شعوب الأستين (سكان أوسيتيا الشمالية والجنوبية حالياً) والأنجوش والقبارطاي، وبعد وفاة الإمبراطورة تمارا أصيبت الدولة بالضعف والوهن إلى أن جاء الاجتياح المغولي والتتاري فتفككت جورجيا إلى دويلات وأقاليم عدة هي:

١- مملكة جورجيا وشملت مدينة تفليس عاصمة جورجيا الحالية وماحولها من مناطق.

٢- مقاطعة كاخيتيا Kakhetia

٣-مقاطعة كارتلينيا Kartalinia

٤-مقاطعة إيمريتيا Imeritia

٥-مقاطعة منجريليا Mingrelia

٦-مقاطعة غوريا Goria

هذه الممالك والمقاطعات المتفرقة سياسياً كانت دائماً هدفاً لاعتداء إيران الصفوية وتركيا العثمانية، مما كان يدفع حكامها إلى طلب النجدة من روسيا القيصرية باعتبارها "حامية النصرانية" كما كانت تسمى نفسها بعد سقوط القسطنطينية بأيدي الأتراك العثمانيين، ولكون الديانة النصرانية الأرثوذكسية التي كان يدين بها الشعب الجورجي هي نفس ديانة روسيا القيصرية.

وقد استغلت روسيا القيصرية هجمات إيران الصفوية وتركيا العثمانية على الممالك والمقاطعات الجورجية لغزو منطقة القوقاز وضمها للحكم الروسي القيصري ابتداءً بجورجيا نفسها ولطرد الإيرانيين من تفليس، وكانت جورجيا هي "الثغرة" التي نفذت منها روسيا القيصرية إلى القوقاز.

اهتمام روسيا بمنطقة القوقاز تعود جذوره إلى قيام روسيا القيصرية حول موسكو والمناطق المحيطة بها بعد انحسار الغزو التتاري والمغولي عنها، والذي قضى على ما كان يسمى بدولة صربيا الكبرى وهي أول دولة أقيمت حول موسكو. ومن المعروف أن الصرب والروس ينحدرون من العرق السلافي المنتشر في روسيا وبعض دول أوروبا الشرقية مثل يوغسلافيا وبلغاريا.

إن دوافع اهتمام روسيا القيصرية بالقوقاز تفاوتت بين مجرد حماية الحدود الجنوبية لروسيا القيصرية من الإيرانيين والأتراك من خلال تحويل القوقاز إلى منطقة عازلة والخط الأول لحماية روسيا القيصرية ضد الدولتين الإسلاميتين، وبين احتلال الهند وفتح طرق تجارية لروسيا عبر القوقاز، وكذلك كان استرجاع القسطنطينية (إسطنبول حالياً) من العثمانيين المسلمين، وتخليص القدس من حكم المسلمين من أهم دوافع بعض قياصرة روسيا المتعصبين للكنيسة الأرثوذكسية، إذ كانوا يعتبرون أنفسهم "حماة النصرانية» في العالم.

قام بطرس الأكبر عام ١٧٢٢م بحملة

عسكرية إلى بحر قزوين، واحتل فيها دربند، أوباب الأبواب كما كان يسميها العرب لكن لم تصل جيوشه إلى بلاد الشيشان أو أي منطقة أخرى من شمال القوقاز، خلافاً للكاتب والمؤرخ البريطاني جون بادلى الذي ذكر أن الخسائر الوحيدة التي لقيها جيش بطرس الأكبر في حملته على دربند كانت في بلاد الشيشان وقد دخلتها بعض قواته التي ضلت الطريق، فهوجمت في الغابات وألحقت بها خسائر كبيرة، وكادت أن تُباد لولا وصول قوات روسية كبيرة خرجت تبحث عنها[٣٣].

لم يكن بطرس الأكبر يفكر في فتح القوقاز لأن إيران الصفوية وتركيا العثمانية كانتا قويتين في ذلك الوقت. إلا أنه مهد الطريق لخلفائه لغزو القوقاز من خلال بناء قلاع ومستوطنات على امتداد نهر التيرك الفاصل بين روسيا والقوقاز، ونقل شعوب القوزاق النصرانية التي كانت تسكن حول موسكو وفي أوكرانيا وبولندا -بعد إخضاعها لحكمه- إلى هذه المستوطنات التي اعتبرت خط الدفاع المتقدم لروسيا القيصرية ضد الأتراك والإيرانيين إذا حاولوا مهاجمة حدود روسيا الجنوبية. أول حملات عسكرية إلى القوقاز بقصد الاحتلال قامت بها كاترينا الثانية قيصرة روسيا التي تسميها كتب التاريخ بكاترينا العظيمة إذ قامت أولاً بطرد الأتراك من جورجيا وأبخازيا وشبه جزيرة القرم، وحاصرت الأتراك في ميناء أنابا على ساحل البحر الأسود. ثم أرسلت قواتها لاحتلال بلاد الشيشان والأنجوش والقبارطاي، ولكن جيوشها التي وصلت بلاد الشيشان عام ١٧٨٥م مُنيت بهزائم ساحقة على يد قوات الإمام منصور الشيشاني الذي عندما سمع بوصول القوات الروسية القيصرية لشمال القوقاز خرج من قرية ألدى في بلاد الشيشان وهي مسقط رأسه، يدعو إلى الجهاد المقدس ضد الغزاة الروس[٣٤].

وكان الشيخ منصور قد درس القرآن والعلوم الدينية في الداغستان. وعاد إلى بلاد الشيشان يدعو إلى التمسك بالشريعة

الإسلامية، لأن فيها فلاح المسلم في الدنيا والآخرة. وكانت معرفة الشيخ بقراءة القرآن وإلمامه بالشريعة الإسلامية من خلال العلوم الدينية التي تلقاها سبب مكانته بين الشيشان خاصة، وإن هذه المعرفة صاحبتها أخلاق نبيلة مثل التواضع والصدق والأمانة في التعامل وبساطة العيش.

وقد لقيت دعوة الجهاد التي أطلقها الإمام منصور للقتال ضد الروس تجاوباً كبيراً من شعوب شمال القوقاز، وانضم إليه إضافة للشيشان شعوب الداغستان والشراكسة والنوغاي التترية الأصل. واستطاع الإمام منصور بقواته هذه إلحاق هزائم عدة بالقوات الروسية القيصرية طوال ست سنوات من عام ١٧٨٥م إلى ١٧٩١م، ولم يمكنها من احتلال أي منطقة في شمال القوقاز.

في عام ١٧٩١م كانت الجيوش القيصرية تحاصر الأتراك في ميناء أنابا على ساحل البحر الأسود، فأرسل الخليفة العثماني إلى الإمام منصور يطلب منه نجدة الأتراك المحاصرين في أنابا، فذهب الإمام منصور على رأس قوة من رجاله، وهاجم القوات الروسية من الخلف، واستطاع فك الحصار عن أنابا، مما سمح للخليفة العثماني بإرسال قوة عسكرية قوامها ثلاثون ألف رجل بقيادة عسكر بطال باشا ومعها المؤن والتجهيزات العسكرية والأموال لدعم صمود أنابا أمام القوات القيصرية.

وبعد وصول عسكر بطال باشا لأنابا أساء القائد التركي معاملة الإمام منصور ورجاله لغيرته الشديدة من الشعبية الجارفة التي كان الإمام منصور يتمتع بها بين شعوب شمال القوقاز بما فيهم الشراكسة الذين كانت تركيا تعتبرهم من رعاياها.

وغادر الإمام منصور ميناء أنابا، وأرسل رسالة احتجاج إلى السلطان العثماني على سوء معاملة عسكر بطال باشا له ولرجاله، مما دفع السلطان العثماني إلى إرسال "لجنة تحقيق" خاصة. وفي الوقت نفسه، أرسل إلى الإمام منصور رسالة اعتذار وطلب منه العودة لأنابا التي عاد الروس لمهاجمتها

بعد أن حشدوا جيشاً كبيراً لفتحها. وعاد الإمام منصور إلى أنابا، وتولى مع رجاله قيادة عملية الدفاع عن أنابا التي صمدت ١٤ يومياً متواصلاً أمام الهجمات الروسية المكثفة عليها. لكن القائد التركي عسكر بطال باشا ارتكب جريمة الخيانة الكبرى، إذ خرج سراً من القلعة ومعه أتباعه وحاشيته حاملاً معه الذهب والأموال الوفيرة، وانضم للقوات الروسية. وكان لهذه الخيانة أثر كبير في هبوط معنوية المدافعين الأتراك رغم محاولات الإمام منصور أن يحفظ روحهم المعنوية والقتالية، وقرر القائد التركي الذي حل مكان عسكر بطال باشاً أن يستسلم للروس، ويفتح أبواب القلعة وسط احتجاج ومعارضة الإمام منصور، وعندما فُتحت أبواب القلعة للروس اندفع لداخلها ألاف الجنود الروس، وكانت مقاومة الإمام منصور ورجاله هي المقاومة الوحيدة التي لقيها الروس داخل القلعة، ووقع الإمام منصور في الأسر بعد أن سقط جريحاً وسقط منه سيفه.

ونقل الإمام منصور مقيداً بالسلاسل إلى بلاط كاترينا في سان بطرسبرج عاصمة القياصرة حيث طلبت كاترينا مشاهدته أسيراً، وهو الذي ألحق بجيوشها الهزائم المنكرة في شمال القوقاز، وبعد أن نظرت كاترينا إلى الإمام منصور مقيداً بالسلاسل الحديدية أمرت بسجنه في جزيرة نائية حيث تم قتله عام ١٨٩٤ م بعد أن هاجم حراسه وطعن أحدهم يخنجر خطفه من بعضهم[٣٥].

لم يتم احتلال القوقاز الشمالي في عهد كاترينا التي عملت على زيادة القلاع والمستوطنات للقوزاق على امتداد نهر التيرك ونهر الكوبان، واكتمل في عهدها بناء مايسمى خط القوزاق العظيم الذي امتد من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأسود غرباً. وبعد وفاة كاترينا تسلّم حكم روسيا القيصرية ابنها "بول" الذي أمر بسحب الجيوش الروسية من شبه جزيرة القرم ومن أذربيجان وداغستان الشرقية[٣٦].

لم يُعّمر القيصر بول طويلاً، وقتل خنقاً بعد مؤامرة داخلية ضده، لأنه كان ينوي

التحالف مع نابليون إمبراطور فرنسا ضد إنجلترا لكي يقوم الاثنان بغزو الهند وانتزاعها من الإنجليز، ثم غزو تركيا العثمانية واستعادة القسطنطينية التي وعد نابليون أن يقدمها "هدية للقيصر بول"(٣٧).

وجاء بعد بول ابنه ألكسندر الأول الذي كان مثل جدته كاترينا يحلم باستعادة القدس من المسلمين، وإحياء الأرثوذكسية في القسطنطينية ولكن بدون التحالف مع نابليون الذي بدوره قام بمهاجمة موسكو.

انشغال روسيا القيصرية بحرب نابليون ترك القوقاز الشمالي والجنوبي خارج السيطرة الروسية، لكن بعد انتصار الحلفاء (انجلترا وبروسيا وروسيا القيصرية) على نابليون ودخولهم باريس عام ١٨١٤م جعل من روسيا القيصرية أقوى دولة في أوروبا حيث إن بروسيا (ألمانيا حالياً) إضافة لبولندا والنمسا كانت تخضع لسيطرة أسرة رومانوف التي تحكم روسيا القيصرية.

الحرس الروسي البروسي الذي كان يلقب "بالحرس الحديدي" كان هو الحرس الشخصي للقيصر ألكسندر الأول، وكان هذا الحرس هو سبب هزيمة نابليون في معركة واترلو أمام القائد البريطاني الدوق ولنجتون إذ وصل هذا الحرس إلى المعركة في لحظات من القتال كان النصر فيها قريباً من نابليون. فخسر المعركة بعد انضمام قوات الحرس الحديدي لقوات الدوق ولنجتون.

وكان أول حاكم عسكري لمدينة باريس عاصمة نابليون بعد دخول الحلفاء إليها "يرملوف" قائد الحرس الحديدي القيصري(٣٨).

وبعد أن خرجت روسيا القيصرية من حرب نابليون كأقوى قوة عسكرية في أوروبا، طمع قيصر روسيا ألكسندر الأول في غزو الهند ثم استرجاع القسطنطينية والقدس من المسلمين العثمانيين.

وشرع ألكسندر الأول بتحقيق هذه الأطماع عام ١٨١٨م حين قام بتعيين "يرملوف" قائداً عاماً لقوات القوقاز. وعندما سمع شاعر روسيا المعروف بوشكين بتعيين يرملوف قائداً لقوات القيصر في

القوقاز كتب يقول[٣٩].

"أيها القوقاز: طأطئ رأسك الثلجي واخضع، فإن يرملوف قادم"

وقد كانت أولى أعمال يرملوف في شمال القوقاز هو بناء مدينة "غروزني" عاصمة الشيشان الحالية وذلك على أنقاض بلدة شيشانية صغيرة كانت تسمى "(سونجا - غالا)" و"سونجا" اسم النهر الذي يخترق بلاد الشيشان في مدينة غروزني الحالية بينما كلمة "غالا" بالشيشانية تعني الحصن أو القلعة . أما كلمة "غروزني" فهي كلمة روسية تعني المُهدّد أو المرعب وكانت لقباً للقيصر الروسي "إيفان" الذي سُمى بإيفان المرعب وهو أحد القياصرة الأوائل الذين أرسوا دعائم روسيا القيصرية في سنواتها الأولى.

بعد بناء غروزني، شرع يرملوف في إخضاع الشيشان، لأنهم كانوا ألد أعداء روسيا القيصرية في شمال القوقاز منذ أيام كاترينا الثانية، واستخدم سياسة" الأرض المحروقة" لإخضاع الشيشان إذ تم دك القرى والبيوت الشيشانية بالمدفعية التي لم يكن الشيشان قد رأوها من قبل. وبقوة نيران المدفعية الحارقة تمكن يرملوف من إخضاع الجزء السهلي من بلاد الشيشان لكن سكانها هربوا إلى الجبال التي تشكل الجزء الأكبر من بلاد الشيشان وشنوا من هناك حرب عصابات أو حرب "الأوبراك" كما يسميها الروس وهي باللغة الروسية تعني "الخارج عن القانون" أو "رجل عصابات" وهو نفس اللقب الذي أطلقه الروس على جوهر دوداييف ورجاله.

وقد أنهكت حرب العصابات قوات يرملوف، فلم يستطع إخضاع المنطقة الجبلية، وتكبدت هناك خسائر فادحة، وكان أشهر أبطال "حرب العصابات الشيشانية" هو الفارس الشيشاني "تيمي بيبولت" الذي كان يلقب بصاعقة القوقاز. وقد ألحق قوات يرملوف خسائر فادحة من خلال هجمات خاطفة ليلية لم يتمكن يرملوف من إيقافها بجيوشه ومدفعيته. لكن اغتيل تيمي بيبولت غدراً بمؤامرة روسية. ومع هذا استمر

الشيشان في المقاومة من الجبال، ولم يستطع يرملوف إخضاعهم فعزله القيصر نيقولا (نيكولاس) الثاني عام ١٨٢٧، وحل محله الجنرال ياسكفتش. وعلى عكس ماتوقع الشاعر بوشكين، فإن يرملوف وليس "جبال القوقاز" هو الذي طأطأ رأسه خاضعاً وغادر القوقاز مهزوماً. وبعد أن نجحت قوات القيصر نيقولا الثاني في احتلال الأجزاء السهلية في بلاد الشيشان وبلاد القبارطاي والشراكسة الذين خضعوا مبكرين منذ عام ١٨٢٢م للحكم الروسي، إضافة للأجزاء الساحلية والسهلية في شرق الداغستان، حوّل القيصر اهتمامه نحو طرد الإيرانيين والأتراك من أذربيجان وجورجيا وأرمينيا وشبه جزيرة القرم. وخلال ثلاث سنوات (١٨٢٦م - ١٨٢٩م) تمكنت جيوش القيصرة من هزم الإيرانيين والأتراك الذين تم طردهم نهائياً من هذه المناطق بنهاية عام ١٨٢٩م ، بل لاحقت الجيوش القيصرية الإيرانيين إلى تبريز والأتراك إلى الأناضول داخل حدود هذين البلدين[٤٠].

وبعد سقوط جنوب القوقاز بأكمله في أيدي القوات القيصرية أصبحت جميع منطقة القوقاز الشمالي والجنوبي تحت الحكم الروسي باستثناء الأجزاء الجبلية في الداغستان، وبالتحديد منطقة أفاريا في الجزء الغربي من الداغستان، وكذلك الأجزاء الجبلية من بلاد الشيشان.

وبعد طرد الإيرانيين والأتراك من القوقاز الجنوبي وشبه جزيرة القرم، ظنّ الروس أنهم امتلكوا جميع القوقاز، واستعدوا لغزو الهند بعد "نزهة عسكرية" في أفاريا وبلاد الشيشان، لكن هذه النزهة استغرقت ثلاثين سنة متواصلة من الحرب الضروس فقد خلالها الروس حسب ماجاء في كتاب "سيوف الجنة" للمؤرخة الأمريكية لزمي بلاتش أكثر من نصف مليون جندي وضابط وجنرال[٤١].

هذه الحرب سميت بحرب القوقاز الأولى في كتب التاريخ الروسية والأوروبية. وكان خصم روسيا القيصرية فيها الحركة الإسلامية التي سميت بالحركة

المريـدية Muridism وهي حـركـة دينيـة نشـأت في قـريـة غـمـري بإقليم أفـاريا بالداغستان، أسسها الإمام غازي محمد الداغستاني عام ١٨٢٩م. وعندما تحركت القوات الروسية نحو الداغستان تصدت لها هذه الحركة. وأعلنت الجهاد المقدس في الداغستان، وتمكن الإمام غازي محمد من إلحاقها عدة هزائم . لكن في عام ١٨٣٢م تمكن الروس من محاصرة الإمام غازي وتلميذه وصديقه منذ الطفوله الإمام شامل في عاصمة الحركة بقرية غمري حيث دارت معركة شرسة من بيت لبيت، ولكن في النهاية تمكن الروس من القضاء على جميع الموجودين في القرية ماعدا اثنين أحدهما شامل الذي استطاع الانفلات من القتل بعد أن أصيب بجرح بالغ أثناء الفرار. أما الإمام غازي محمد فقد استشهد في المعركة وسيفه بيده. وبعد هروب شامل مصاباً تسلّم زعامة الحركة "القائد حمزات" ولم يُطلق عليه اسم "إمام" من قبل الكثيرين لأنه تقاعس عن نجدة الإمام غازي محمد أثناء معركة غمري رغم أن حمزات كان قريباً من أرض المعركة وعلى رأس قوة كبيرة من الفرسان[٤٢].

لم يُعمر حمزات طويلاً إذ اغتيل عام ١٨٣٤م، وكان شامل عندئذ قد شفي تماماً من إصابته فأصبح إمام الحركة المريدية في الداغستان، واستمر في المقاومة لغاية ١٨٣٩م، ولكن في النهاية -نتيجة لخيانة الكثيرين من حكام المقاطعات والخانيات في شرق وجنوب الداغستان- تمكن الروس من هزم الإمام شامل في معركة أخولكو عام ١٨٣٩م، وتم القضاء على الحركة المريدية في الداغستان. لكن الإمام شاملاً تمكن من الهروب مرة أخرى، وكان هروبه هذه المرة إلى بلاد الشيشان.

رغم أن بعض الشيشان كانوا قد انضموا إلى الحركة المريدية في الداغستان إلا أن معظم القبائل الشيشانية -بسبب الخسائر التي لحقت بها من المدفعية الروسية منذ أيام يرملوف - كانت قد لجأت إلى الجبال مع شن هجمات خاطفة بين حين وآخر على

الحاميات الروسية في الجزء السهلي المحتل من بلاد الشيشان. وكان هروب شامل إلى بلاد الشيشان نقطة تحول في حرب القوقاز الأولى، فإن شيشان الجبال عندما وصل شامل إليهم طالباً العون، دعوه زعيماً وإماماً لهم، ونزلوا من الجبال بأعداد كبيرة بحيث تجمع لشامل جيش كامل من المحاربين الشيشان الأشداء، وبهذا الجيش الشيشاني استطاع استرجاع جميع الداغستان، وعاقب جميع من خانوه من أمراء الداغستان، وقتلهم ، أو أجبرهم على الهروب إلى الروس، كما استطاع جيشه تحرير الأجزاء السهلية من بلاد الشيشان، وطرد الروس من معظم شمال القوقاز. وكان لانتصارات شامل في بلاد الشيشان دور كبير في تشجيع الشراكسة في الغرب على سواحل البحر الأسود على الثورة ضد الروس حيث قاموا بمهاجمة القلاع الروسية وأبادوا من فيها.

وقد استمر شامل في مقاومة الروس في شمال القوقاز إلى عام ١٨٥٩م إذ انهزم في معركة غونيب واستسلم للأمير باريانسكي ولي عهد القيصر. وظلّ الشيشان بعد استسلام شامل، يقاومون من الجبال، ورجعوا إلى حرب العصابات بقيادة بويسغر الشيشاني الذي أنكر على شامل قبوله الاستسلام، وشق مع فرسانه طريقه مخترقاً القوات الروسية التي حاصرت غونيب عاصمة شامل في الداغستان، ولجأ إلى الجبال في بلاد الشيشان، واستمر في المقاومة إلى عام ١٨٦٤م إذ أسر وشنق مع رجاله، وبذلك انتهت حرب القوقاز الأولى التي كان الشيشان ضحيتها الأولى، فقد تم تدمير بلادهم بالكامل ونقص عدد الشعب الشيشاني في هذه الحرب إلى النصف في الجبال وإلى الربع في السهول[٤٣].

ورغم هذه الخسائر الباهظة في صفوف الشيشان من جراء حرب القوقاز الأولى، فإنهم كانوا دائماً، وكلما أتيحت لهم الفرصة، وتوفرت لهم القوة، يقومون بالثورة على الحكم الروسي القيصري. وأشهر هذه

الثورات هي التي قادها الزعيم الديني كونتا - حجا عام ١٨٦٧، وكذلك ثورة علباك حجا عام ١٨٧٧م التي استمرت سنة واحدة ثم أسر علباك حجا وأتباعه وتم إعدامهم.

كما قامت ثورات أخرى عام ١٩٠١م وعام ١٩٠٥م لكن تم قمعها بشدة وأُعدم من شارك فيها[٤٤].

حين قامت الثورة البلشفية في روسيا الاتحادية عام ١٩١٧م، كان قسم كبير من القوات القيصرية موجوداً في منطقة القوقاز بقيادة الجنرال دينيكين. ولكي يكسب الشيوعيون شعوب شمال القوقاز إلى جانبهم، أصدر "لينين" زعيم الثورة البلشفية نداء إلى شعوب شمال القوقاز يدعوهم فيه للثورة على حكم القياصرة والانضمام للثورة وجاء في النداء:

"يامسلمي روسيا وتتار الفولجا والقرم، ويا أيها القرغيز وشعوب سيبيريا وتركستان[٤٥]، يا أتراك وتتار ماوراء القفقاس، وياشيشان وقوزاق الجبال، وياجميع من دُمّرت مساجدهم ومزارعهم ويامن انتُهكت عقائدهم وتقاليدهم على يد قياصرة روسيا وظالميها، من الآن فصاعداً نعلن أن عقائدكم وعاداتكم ومؤسساتكم القومية والثقافية حرة ومصونة من الانتهاك، ابنوا حياتكم القومية بحرية ودون عائق، إن ذلك من حقكم اعلموا أن حقوقكم كحقوق جميع شعوب روسيا ستحميها قوة الثورة ومجالس نواب العمال والجنود والفلاحين».

وعلى إثر هذا النداء، تنادت شعوب شمال القوقاز إلى مؤتمر عام في فيدينو بجمهورية الشيشان، وحضر المؤتمر ممثلون عن جميع شعوب شمال القوقاز، وقرر المجتمعون إعلان قيام جمهورية اتحاد شمال القوقاز المستقلة[٤٦] واعترفت بهذه الجمهورية ألمانيا وتركيا والنمسا وبلغاريا، ولكن القوات القيصرية بقيادة دينيكين رفضت هذا الاستقلال، وقامت بمهاجمة شمال القوقاز ولقيت مقاومة عنيفة من

قوات وشعوب شمال القوقاز وتكبدت خسائر كبيرة أدت إلى انتصار القوات الشيوعية لاحقاً على قوات الجنرال دنيكين في المعارك العسكرية التي جرت بين الجيشين خارج شمال القوقاز، وبعد انتصار الشيوعيين على القياصرة وتسلّمهم الحكم رسمياً في روسيا الاتحادية، تنكروا لوعودهم لشعوب شمال القوقاز كما جاء في نداء لينين أثناء الثورة، وقامت قوات البلاشفة بمهاجمة شمال القوقاز، وأعادوا احتلالها عام ١٩٢١م رغم المقاومة الشرسة من شعوب شمال القوقاز، وقد استمرت سنة كاملة رغم الفارق الكبير في العدد والعُدة.

وقامت السلطة الشيوعية الجديدة في روسيا بقمع جميع المحاولات التي قامت بها شعوب شمال القوقاز للثورة على الحكم الشيوعي كما حدث عام ١٩٢٩م إذ ثار الشيشان والأنجوش والقرشاي والبلقار فتم قصف القرى والمدن الثائرة بالمدفعية الثقيلة وتولت القوات الشيوعية البرية الهجوم على هذه القرى بأعداد كبيرة وقتلت الآلاف من الثائرين كما أعدم جميع زعماء الثورة[٤٧].

وفي عام ١٩٣٧م قام الشيوعيون بحملة قوية ضد الإسلام استهدفت العلماء والمساجد وتم إعدام كثير من العلماء في شمال القوقاز فتقلص عددهم من عشرة آلاف إلى بضع مئات كما هدمت المساجد ودور تعليم القرآن وألغيت المحاكم الشريعة وأنشئت بدلها "لجان التوثيق والمصالحة" برئاسة مواطنين شيوعيين من كوادر الحزب.وقد أدى هذا القمع الديني إلى حدوث ثورة عارمة في بلاد الشيشان عام ١٩٣٩م استمرت لنهاية عام ١٩٤٠م وكان يقود الثورة حسن إسرائيلوف الذي احتلت قواته في بداية الثورة المناطق الجبلية من بلاد الشيشان لكن الشيوعيين قاموا بحشد قوات ضخمة تساندها الطائرات، وتمكنوا من القضاء على الثورة وإعدام زعمائها[٤٨].

وفي شباط عام ١٩٤٤م قام ستالين بنفي الشيشان والأنجوش والقبارطاي والبلقار وكذلك تتار القرم إلى آسيا

الوسطى وسيبيريا حيث أقام معسكرات اعتقال وعمل قسرى . وكان الشيشان والأنجوش أكثر الشعوب تمرداً في معسكرات الاعتقال حيث ثار الأنجوش في معسكر يورفوي بكازاخستان عام ١٩٤٥م، لكن ثورتهم قمعت بعد أن سفكت دماء المئات منهم على أيدي قوات ستالين.

وفي عام ١٩٥٤م ثار أربعة آلاف شيشاني في معسكرات اعتقالهم بكازاخستان واستطاعوا التغلب على قوات حراسة المعتقل، وانطلقوا بما حصلوا عليه من أسلحة من حراس المعتقل لمهاجمة المعسكرات القريبة، وحرروا السجناء فيها، ولكن القوات الشيوعية التي وصلتها تعزيزات ضخمة من قوات الشرطة السرية وقوات وزارة الداخلية الروسية شنت حملة المطاردة عدة أشهر، وقتل كثير من السجناء الهاربين في كازاخستان لكن قسماً كبيراً منهم نجح في الهروب والتسلل إلى خارج كازاخستان[٤٩].

الكاتب الروسي المعروف سولنجستين الذي قد أرسله ستالين إلى معسكرات الاعتقال في سيبيريا بسبب كتاباته المناهضة للشيوعية كان شاهداً على شجاعة السجناء الشيشان حتى في معسكرات الاعتقال في سيبيريا. فقال في بعض كتاباته:

"لك أن تكسر ظهورهم، لكن لا يستطيع أحد أن ينال من روحهم المعنوية، فقد ظلت نفوسهم نموراً مقيدة بالسلاسل فقد كانوا من التشتشن (كما ينادي الروس الشيشان) الذين لا يرهبون الموت" . وفي عام ١٩٥٧م بعد وفاة ستالين وتسلم خروشوف الحكم، أصدرت القيادة السوفياتية قراراً بالعفو عن الشيشان والأنجوش وبقية الشعوب التي تم نفيها. ومن أصل حوالي نصف مليون شيشاني تم نفيهم، عاد نصفهم فقط والباقي هلك في معسكرات الاعتقال بسيبيريا وكازاخستان، وكانت نسبة الوفيات بين الشيشان أعلى نسبة بين جميع الشعوب التي تم نفيها، ويذكر هنا أن الرئيس جوهر دودايف وكذلك روسلان

حسبولاتوف رئيس البرلمان الروسي السابق كانا طفلين صغيرين على أكتاف والديهما عندما تم نفي الشيشان إلى سيبيريا وكازاخستان حيث قضى الاثنان ثلاث عشرة سنة من عمرهما في معسكرات الاعتقال بكازاخستان[٥٠].

وبعد العودة من المنفى، اتجهت جهود الشيشان والأنجوش والقرشاي والبلقار إلى إعادة بناء بلادهم التي كانت السلطات السوفيتية قد أسكنت فيها الشعوب المجاورة مثل الداغستانيين والأوستين والقوزاق فغادر هؤلاء بالتدريج إلى بلادهم بعد عودة سكان البلاد الأصليين وتم توحيد الشيشان والأنجوش في جمهورية واحدة هي جمهورية الشيشان - أنجوش التي ظلت قائمة لغاية عام ١٩٩١م حين أعلن الشيشان بقيادة الجنرال جوهر دودايف بإعلان استقلال جمهورية الشيشان، وبهذا الإعلان انفصلت الجمهورية عن روسيا الاتحادية. أما الأنجوش فاختاروا البقاء تحت الحكم الروسي الاتحادي، وجرت انتخابات رئاسية في بلاد الأنجوش وفاز بها الرئيس الحالي روسلان أوشيف.

بعد أن فشلت موسكو في الإطاحة بنظام حكم الرئيس دودايف من خلال عمليات سرية تحت اسم "المعارضة الشيشانية" المؤلفة من عملاء موسكو في جمهورية الشيشان منذ أيام الحكم الشيوعي، قامت موسكو في الحادي عشر من ديسمبر عام ١٩٩٤م بغزو جمهورية الشيشان وبكل وحشية وقسوة وباستخدام أحدث أنواع الأسلحة المتوفرة لديها وقد أدت الحرب إلى مقتل ستين ألفاً من الشعب الشيشاني إضافة لمائة ألف جريح، كما أصبح نصف مليون من الشعب الشيشاني لاجئين في الجمهوريات المجاورة وبوجه خاص في الداغستان وأنجوشيا بعد تدمير شامل لمعظم القرى والمدن الشيشانية.

ورغم أن الغزو الروسي لجمهورية الشيشان كان عدواناً صارخاً على الشعب الشيشاني وحقوقه المشروعة في تقرير مصيره بنفسه إلا أن المجتمع الدولي

لـم يفـعل شـيـئـاً لوقف ممارسـات الجـيش الروسي الوحشية ضد الشعب الشيشاني، باستثناء بيانات شجب هزيلة، وذلك بحجة أن هذا الغزو يعتبر من "الشؤون الداخلية" لروسيا الاتحادية.

يعيش في منطقة القوقاز نحو اثنى عشر مليون مسلم[٥١]، سبـعـة مـلايين منهم في جمهرية أذربيجان الواقعة في جنوب القوقاز بينمـا يتـوزع البـاقـون في منطقـة شـمـال القوقاز ضمن خمس جمهوريات ذات حكم ذاتي ومـقـاطعـتين ذواتي حكم مـحلي وتتقاسم روسيا الاتحادية وجورجيا حكم هذه الجمهوريات والمقاطعات.

الجمهوريات الخمس التي تتمتع بالحكم الذاتي هي:

١- جمهورية الداغستان.

٢- جـمـهـورية الشـيـشـان/ أنجوش تتـبـع روسيا الاتحادية[٥٢].

٣- جمهورية قبارطيا - بلقاريا.

٤- جمهورية أبخازيا (انفصلت عن جورجيا عام ١٩٩٢م).

٥- جمهورية أدجاريا (تتبع جورجيا).

أما مقاطعتا الحكم الذاتي اللتان تتبعان روسيا الاتحادية فهما :-

١- مقاطعة الأدريغه.

٢- مقاطعة القراشاي والشركس.

الجدير بالذكر أن جمهـوريتي تتارستان وبشكيريا الإسلاميتين اللتين تتبعان روسيا الاتحادية تضمان مجتمعتين حوالي ثمانية ملايين نسمة نصفهم تقريباً من المسلمين، لكن هاتين الجمهوريتين تقعان خارج منطقة القـوقـاز فـلا تعـدان من شـعـوب منطقـة القوقاز.

فيما يلي معلومات مختصرة عن التوزيع السكاني في هذه الجـمـهـوريات المسـتـقلة، والجمهوريات ذات الحكم الذاتي والمقاطعات ذات الحكم المحلي، عـلـمـــــاً بـأن حكـم المقاطعات المحلي هو أقل درجات الاستقلال باعتـبـار أن جميع شؤون المقاطعة الإدارية

والسياسية والاقتصادية تكون بيد سلطات الإقليم الذي تتبعه المقاطعة.

جمهوريات أذربيجان:

العاصمة : باكو:

* المساحة: ٤٤٧ ألف كيلو متر مربع (بما في ذلك جمهورية ناخشيفان التي تتبع روسيا الاتحادية وتقع ضمن أراضي أذربيجان وكذلك مقاطعة ناجورنو - قرباغ والتي تقع ضمن أراضي أذربيجان ولكن تتبع سياسيًا لأرمينيا وأغلبية سكانها من الأرمن .

* عدد السكان: ٧ ملايين نسمة.

* التوزيع السكاني:

١- الأذربيجون: خمسة ملايين وثمانمائة ألف.

٢- الروس : نحو أربعمائة ألف.

٣- الأرمن : نحو أربعمائة ألف.

٤- الأوكرانيون: نحو خمسة وثلاثين ألفاً.

٥- التتار: نحو ٢٨ ألفاً.

٦- اليهود نحو ٢٨ ألفاً.

٧- الجورجيون : نحو ١٤ ألفاً.

٨- البيلوروسيون (من بلورسيا أو روسيا البيضاء) نحو سبعة آلاف.

٩- قوميات متفرقة : نحو ثلاثمائة وعشرين ألفاً وتشمل:

١- الإيرانيين .

٢- الداغستانيين .

٣- العرب.

* العاصمة: مخاتش غالا (٥٣).

* المساحة: ٥٠ ألف كيلو متر مربع.

* عدد السكان: مليون وثمانمائة ألف نسمة

* التوزيع السكاني:

أ- الداغستانيون: نحو مليون وأربعمائة وخمسين ألفاً يتألفون من الشعوب التالية:

١- الأفار نحو ٤٥٠ ألف نسمة.

٢- الدارغيين نحو ٢٨٠ ألف نسمة.
٣- الكوموك نحو ٢٣٠ ألف نسمة.
٤- اللزغيين نحو ٢٠٥ ألف نسمة.
٥- اللاك نحو ٩٠ ألف نسمة.
٦- التبارسان نحو ٧٨ ألف نسمة.
٧- النوغاي نحو ٢٨ ألف نسمة.
٨- الروتل: نحو ١٤ ألف نسمة.
٩- الأغول نحو ١٣ ألف نسمة.
١٠- الساخوريين: نحو خمسة آلاف نسمة.

ب- قوميات وشعوب قوقازية:
١- الأذريون (أذربيجان) نحو ٧٥ ألف نسمة.
٢- الشيشان نحو ٦٠ ألفاً (منطقة خسويورت).
٣- التات: نحو ١٣ ألف نسمة.
٤- الأرمن نحو ٦ آلاف نسمة.
٥- التتار نحو خمسة آلاف نسمة.
٦- الأوسيت (أوستين) نحو ألف نسمة.
٧- الجورجيون نحو ألف نسمة.
٨- قوميات مختلفة نحو ١٣ ألف نسمة وتشمل هذه القوميات العرب ومسلمي آسيا الوسطى .

جـ- شعوب سلافية:
١- الروس نحو ١٦٥ ألف نسمة.
٢- الأوكرانيون نحو ثمانية آلاف نسمة.
٣- البيلورسيون نحو ألف وخمسمائة نسمة.

* العاصمة: غروزني (سونجا - غالا كما يسميها الشيشان).
* المساحة: ١٩ ألف كيلومتر مربع.
* عدد السكان: مليون وثلاثمائة ألف.
* التوزيع السكاني:
أ- السكان الأصليون:
١- الشيشان: سبعمائة وخمسون ألف نسمة.
٢- الأنجوش: ١٦٥ ألف نسمة.
ب- قوميات وشعوب قوقازية أخرى::

١- الأرمن نحو ١٥ ألفاً.

٢- الجورجيون نحو ألف نسمة.

٣- الأوسيت نحو ألفي نسمة.

جـ- شعوب داغستانية:

١- القمق نحو عشرة آلاف نسمة.

٢- النوغاي نحو سبعة آلاف نسمة.

٣- الآفار نحو ستة آلاف نسمة .

٤- الدارغن نحو ألفي نسمة.

٥- اللاك نحو ألف نسمة.

د- شعوب سلافية:

١- الروس نحو ٢٩٠ ألف نسمة.

٢- الأوكرانيون نحو ١٢ ألف نسمة.

٣- البيلوروسيون (روسيا البيضاء) نحو ألفين وخمسمائة نسمة.

هـ- قوميات وشعوب أخرى:

١- التتار نحو خمسة آلاف.

٢- القوزاق/ اليهود / العرب نحو ١٤ ألف نسمة.

أ- عام ١٩٩١م أعلنت جمهورية الشيشان استقلالها عن روسيا الاتحادية مما استدعى انفصال الأنجوش عن الشيشان، وقامت موسكو بإجراء انتخابات رئاسية في منطقة الأنجوش التي تقع في محاذاة جمهورية أوسيتيا الشمالية في الحدود الغربية من جمهورية الشيشان.

وحيث إن نحو ٨٠ ألف نسمة من الأنجوش كانوا يعيشون ضمن أوسيتيا الشمالية في مقاطعة بريغوردني التي كانت قبل عام ١٩٤٤م من أراضي جمهورية الشيشان - أنجوش وقام ستالين بضمها إلى جمهوريات أوسيتيا الشمالية بعد نفي الشيشان والأنجوش إلى سيبيريا وكازاخستان عام ١٩٤٤م، فإن مجموع الأنجوش في جمهوريتهم الجديدة يقدر بنحو ٢٤٠ ألف نسمة. ولقد اختار الأنجوش تأسيس جمهورية خاصة بهم بعد إعلان الشيشان الاستقلال عن روسيا الاتحادية، وذلك على أمل أن تقوم سلطات روسيا بإعادة إقليم بريغوردني إليهم، وبالتالي جمع جميع الأنجوش ضمن جمهورية واحدة.

وقد وعد يالتسن الأنجوش بذلك لكنه لم يف بوعده لرئيس جمهورية الأنجوش الذي تم انتخابه في شهر نوفمبر من عام ١٩٩١م وهو الرئيس الجنرال روسلان أو شيسيف، وبذلك بقيت مقاطعة بريغوردني ضمن أوسيتيا الشمالية.

أما سكانها الأنجوش فطرد معظمهم إلى أراضي الأنجوش في جمهوريتهم الجديدة بعد أن تعرضوا لمذابح بشعة في شهر نوفمبر عام ١٩٩٢م عندما قام الأنجوش بمحاولة الانضمام لبقية شعبهم في جمهوريتهم الجديدة، ومن السخرية أن القوات الخاصة الروسية Spetznaz ساعدت بصورة مباشرة الأوسيت الذين نكّلوا بالأنجوش في نوفمبر عام ١٩٩٢م أسوأ التنكيل.

ولعل هذا يفسر موقف جمهورية الأنجوش وعاصمتها نزران، المؤيد للرئيس دوداييف واستقلال الشيشان، بعد أن خذلهم يالتسن في مسألة مقاطعة بريغوردني .

ب- حسب إحصاءات عام ١٩٩١م، هناك نحو ثلاثمائة ألف شيشاني يعيشون خارج جمهورية الشيشان ضمن دول وجمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق . منهم نحو ستين ألفاً في الداغستان ، ونحو مائة ألف في كازاخستان ، وعشرة آلاف في جمهورية الكالموك، وثلاثة آلاف في أوستيا الشمالية، وثلاثة آلاف في قيرغيزيا، وثلاثة الاف في أوكرانيا، ونحو ألف نسمة في أذربيجان. أما الذين يعملون خارج الجمهورية فهم موزعون بين موسكو وبقية مدن وجمهوريات روسيا الاتحادية ودول أسيا الوسطى الإسلامية .

ج- معظم الروس الذين يعيشون في الشيشان كانوا يقيمون في غروزني ويعملون في مجال النفط والتدريس. وبعد إعلان الشيشان استقلالهم عن روسيا الاتحادية عام ١٩٩١م. غادر الشيشان عدد كبير من الروس وانخفضت نسبتهم أكثر بعد الغزو الروسي لجمهورية الشيشان إذ قتل آلاف منهم في القصف العشوائي، وغادر قسم كبير العاصمة غروزني التي

أصبحت شبه مدمرة ولم تعد صناعة النفط فيها قائمة بعد الغزو الروسي.

أما اليهود، فقد غادروا الجمهورية بعد إعلان الاستقلال عن روسيا الاتحادية عام ١٩٩١م.

* العاصمة : نالتشك.
* المساحة: ١٣ ألف كيلو متر مربع.
* عدد السكان : ٧٥٠ ألف نسمة.
* التوزيع السكاني:

أ- السكان الأصليون.

١- القبارطاي: جوالي ٣٦٣ ألف نسمة.

٢- البلقار: حوالي ٧٠ ألف نسمة.

ب- قوميات وشعوب قوقازية أخرى.

١- الأوسيت (أوسيتا الشمالية) نحو عشرة آلاف.

٢- الأرمن: نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة.

٣- الجورجيون نحو ألفي نسمة.

٤- الأذربيون نحو ألفي نسمة.

٥- التات: نحو ألف وثلاثمائة نسمة.

٦- اللاك: نحو ألف وثلاثمائة نسمة.

٧- القراشاي: نحو ألف ومئتي نسمة.

جـ- شعوب سلافية:

١- الروس نحو : ٢٤٠ ألف نسمة.

٢- الأوكرانيون ١٣ ألف نسمة.

٣- البيلوروسيون نحو ألفي نسمة.

د- شعوب وقوميات أخرى:

١- الألمان نحو ٨ ألاف نسمة.

٢- الكوريون نحو خمسة آلاف.

٣- الأتراك نحو ٤ آلاف نسمة.

٤- التتار نحو ثلاثة آلاف نسمة.

٥- شعوب متفرقة نحو ٢١ ألف نسمة.

* العاصمة: سوخومي.
* المساحة: ٩ آلاف كيلومتر مربع.
* عدد السكان: نحو ٥٢٠ ألف نسمة
* التوزيع السكاني:

١- الأبخاز (السكان الأصليون) نحو ٩٠ ألف نسمة.
٢- الجورجيون نحو ٢٤٢ ألف نسمة.
٣- الأرمن نحو ٧٦ ألف نسمة.
٤- الروس نحو ٧٥ ألف نسمة.
٥- الأوكرانيون نحو ١١ ألف نسمة.
٦- البيلوروسيون نحو ٢٧ ألف نسمة.
٧- شعوب أخرى متفرقة نحو ٢٦ ألف نسمة وهي:
اليونان/الشيشان/القرشاي/ الأتراك/التتار/ الداغستان/ البلقار.

* العاصمة: باطومي.
* المساحة: ٣ آلاف كيلومتر مربع.
* عدد السكان: ٣٩٢ ألف نسمة.
* التوزيع السكاني:
١- المسلمون الأدجار نحو ١٢٠ ألف نسمة.
٢- الجوجيون (نصارى) نحو ٢٠٠ نسمة.
٣- الروس نحو ٣٠ ألف نسمة.
٤- الأرمن نحو ١٦ ألف نسمة.
٥- اليونان نحو ٧ آلاف نسمة.
٦- الأوكرانيون نحو ٦ آلاف نسمة.
٧- البيلوروسيون نحو ألف نسمة.
٨- شعوب متفرقة نحو سبعة آلاف نسمة، وهي: الأكراد/ الأتراك / الأذربيين.

يوجد في شمال القوقاز مقاطعتان ذواتا حكم ذاتي سكانهما الأصليون من المسلمين هما:
١- مقاطعة الأديغة.
٢- مقاطعة القرشاي - الشركس.
نورد فيما يلي معلومات عن هاتين المقاطعتين وكلتا هما تابعة لروسيا الاتحادية:

الموقع : ساحل البحر الأسود (إقليم كراسندار)
* العاصمة: مايكوب.

* المساحة: ٧٦٠٠ كيلو متر مربع.
* عدد السكان: ٤٣٢ آلف نسمة
* التوزيع السكاني:
١- الأديغة (السكان الأصليون) نحو ٩٥ ألف نسمة.
٢- الروس نحو ٢٩٣ ألف نسمة.
٣- الأوكرانيون نحو ١٤ ألف نسمة.
٤- الأرمن نحو عشرة ألاف نسمة.
٥- شعوب مختلفة نحو ١٩ ألفاً وهي:
القبارطاي / القراشاي / التتار/ الأكراد / اليوناق / الأتراك.

* الموقع: شمال أبخازيا وإلى الغرب من جمهورية القبارطاي وتتبع إقليم ستافروبول الروسي.
* العاصمة: تشيركسيا.
* المساحة: ١٤ ألف كيلو متر مربع.
* عدد السكان: ٤١٥ ألف نسمة
* التوزيع السكاني:
١- القراشاي نحو ١٢٩ آلف نمسة.
٢- الشراكسة نحو ٤٠ الف نسمة.
٣- الروس نحو ١٧٦ ألف نسمة .
٤- الأباظة (مسلمون) نحو ٢٨ آلف نسمة.
٥- النوغاي (مسلمون) نحو ١٣ ألف نسمة.
٦- الأوكرانيون نحو ستة آلاف نسمة.
٧- الأوسيت نحو ثلاثة آلاف نسمة.
٨- الأرمن نحو ٢٥٠٠ نسمة.
٩- شعوب متفرقة نحو ١٧ آلف نسمة وتشمل:
الأبخار/ التتار/ الأتراك/ القبارطاي/ الأكراد / الشيشان/ البلقار/ الجورجيين/ القوزاق.

أ- تعتبر شعوب الأديغة والقبارطاي والأبخاز والبلقار والقرشاي والأباظة من الشعوب الشركسية التي تضم أيضاً قبائل وشعوب الشاسبوغ والأوبيخ والأبزاغ وجميعها من الشعوب الأصلية في شمال

القوقاز باستثناء القراشاي والبلقار التي تعتبر شعوباً تركية - مغولية في الأصل، قدمت إلى منطقة القوقاز مع الحملات المغولية والتركية وبقيت فيها واندمجت مع بقية قبائل وشعوب الشراكسة.

وكان الشعب الشركسي يعتبر أكبر شعوب منطقة القوقاز لكنه حالياً لايشكل سوى نسبة قليلة من شعوب منطقة القوقاز في الجمهوريات والمقاطعات التي يعيش فيها، وذلك بسبب قيام الحكومة القيصرية عام ١٨٦٤م بترحيل نحو ٦٠٠ ألف شركسي إلى تركيا وذلك بموجب اتفاق روسي وتركي، وتبع ذلك التهجير الكبير للشعب الشركسي هجرات أخرى بحيث أصبح غالبية الشعب الشركسي يعيش خارج وطنه الأصلي، إذ يوجد في تركيا نحو مليون وفي الأردن مائة ألف كما يوجد آلاف الشراكسة في الولايات المتحدة والدول الأوروبية وبعض الدول العربية الأخرى مثل سوريا ومصر إضافة إلى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م[٥٤].

والحروب الطويلة التي خاضها الشراكسة ضد الاحتلال القيصري - إضافة إلى قيام الشيوعيين عام ١٩٤٤م بتهجير ونفي القرشاي والبلقار إلى سيبيريا ودول آسيا- أسمهت في هبوط عدد شراكسة القوقاز إذ مات الألوف منهم في هذه الحروب وفي معسكرات النفي الشيوعية.

ب- أما الشيشان فإنهم رغم كونهم حالياً أكبر شعوب شمال القوقاز وبالتالي تعتبر لغتهم هي الأكثر انتشاراً في شمال القوقاز، إلا أن عددهم هبط في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى النصف بسبب مقاومتهم الطويلة التي امتدت لأربعين سنة متواصلة ضد القوات القيصرية الروسية وثلث الشعب الشيشاني هلك في معسكرات العمل القسري التي أقامها ستالين للشيشان والأنجوش في سيبيريا وكازاخستان ومناطق أخرى من آسيا الوسطى بعد أن تم نفيهم إليها عام ١٩٤٤م[٥٥].

لكن مقاومة الشيشان لمحاولات التهجير

القسري لهم إبان الحكم القيصري والحكم الشيوعي الذي جاء بعده، ساهم في بقاء الشيشان أكبر شعوب شمال القوقاز فإن عدد الشيشان الذين هاجروا من بلادهم لايشكل سوى نسبة ضئيلة من تعداد الشعب الشيشاني. ويوجد في الأردن نحو سبعة آلاف شيشاني، وفي تركيا نحو ٣٠ ألف وفي سوريا نحو ألف وخمسمائة كما يوجد في العراق عائلات قليلة شيشانية، وهناك عدد من الشيشان في الولايات المتحدة وبعض الدول الأوربية.

جـ- من الملاحظ أن الوجود الروسي ومعه الوجود السلافي والجورجي والأرمني- يشكل نسبة كبيرة في الجمهوريات الإسلامية التي تقع على البحر الأسود. وأشهر المنتجعات الصيفية في روسيا الاتحادية وجورجيا تقع في هذه الجمهوريات الإسلامية مثل سوشي (مقاطعة الأديغة) وسوخومي (أبخازيا) وباطومي (أدجاريا).

د- أعلنت أبخازيا عام ١٩٩٢م انفصالها عن جورجيا، وكسبت حرب الاستقلال ضد القوات الجورجية، وذلك بمساعدة مقاتلين من شعوب شمال القوقاز، وعلى رأسهم الشيشان والقبارطاي والقرشاي والبلقار.

هـ- هناك جمهوريات إسلامية ألغيت تماماً وتم تشريد ونفي معظم سكانها مثل جمهورية القرم التي كانت أكبر وأقوى الدول الإسلامية في منطقة البحر الأسود قبل أن تحتلها القوات القيصرية. لاتوجد إحصائيات دقيقة عن عدد مسلمي تتار القرم، إلا أن عدد التتار الذين يعيشون داخل روسيا الاتحادية أو في دول آسيا الوسطى الإسلامية فهو مابين ٤ و ٥ ملايين نسمة، كما هاجر إلى تركيا حوالي مليون من تتار القرم بعد المذابح التي تعرضوا لها في العهد الشيوعي حينما قامت السلطات الشيوعية بنفي وتهجير تتار القرم وإلغاء جمهوريتهم عام ١٩٤٤م ، وكانت شبه جزيرة القرم تتبع روسيا الاتحادية إلى أن قام خروتشوف بضمها إلى أوكرانيا بعد تسلمه الحكم بعد موت ستالين عام ١٩٥٣م[٥٦].

ويشكل التتار الآن نسبة بسيطة من جمهورية القرم الحالية التابعة لأوكرانيا رغم أن غالبية سكانها من الروس.

و- هناك جمهوريات ذات حكم ذاتي مثل تتارستان وبشكيريا يوجد بها نحو أربعة ملايين مسلم، ولكن المسلمين لايشكلون الأغلبية فيها بسبب الاستيطان الروسي والسلافي الكبير فيها.

١- كتاب قتلة الأمم ص ١٩.

٢- ومن الأسماء الأخرى التي أطلقت على حرب القوقاز الأولى التي جرت بين القوات القيصرية وقوات الإمام شامل: حرب الجبلين أو حرب المريدين.

٣- كتاب موجز تاريخ جمهوريات أسيا الوسطى وأذربيجان ص٧.

٤- دول البلطيق ضُمت إلى الاتحاد السوفياتي بموجب اتفاق سياسي بين هتلر وستالين تنازل بموجبه هتلر للاتحاد السوفياتي عن هذه المناطق مقابل عدم دخول السوفيات الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا.

٥- جبال البروز تقع في جمهورية قبارطيا بينما "باش لام" يقع في جمهورية الشيشان وكلمة "لام" باللغة الشيشانية تعني الجبل.

٦- كتاب موجز تاريخ جمهوريات أسيا الوسطى وأذربيجان ص٥٣.

٧- خلال الحرب الأهلية الروسية بين القياصرة والبلاشفة أعلنت شعوب شمال القوقاز انفصالها عن روسيا القيصرية، وتم تأسيس جمهورية شمال القوقاز برئاسة نجم الدين غوتنسكي.

٨- كتاب الشركس لمؤلفه محمد خير حغندوقة ص٢١.

٩- أكبر مصفاة نفط في منطقة القوقاز توجد في غروزني عاصمة جمهورية الشيشان المصدر السابق.

١٠- طريق روستوف - باكو وهو الطريق الرئيسي الذي يربط بين إقليم ستامزوبول الروسي المجاور لجمهورية الشيشان شمالاً وبين باكو عاصمة أذربيجان.

١١- كتاب الشركس للمؤلف محمد خير حغندوقة ص٢٥.

١٢- الكسندر بنغسن "الإسلام في القوقاز" ص١.

١٣- الفلسفة المانية نسبة إلى ماني وهي فلسفة ثنوية قائمة على أن الحياة هي صراع بين النور والظلام (أي الخير والشر).

١٤- من كتاب "سيوف الجنة" ص٢٠.

١٥- كتاب الشركس لمؤلفة محمد خير حغندوقة ص ٢٥.

١٦- ٢١- كتاب بنغسن "الإسلام في القوقاز" ص٤-٥.

٢٢- كتاب الاحتلال الروسي لمنطقة القوقاز ص٧٢.

٢٣- كتاب سيوف الجنة ص٦.

٢٤- كتاب سيوف الجنة ص١٦ - ١٨.

٢٥- كلمة "غروزني" باللغة الروسية تعني الرهيب أو المهدد وهي لقب القيصر إيفان وقد أطلقها الروس على مدينة غروزني التي كان اسمها سونجا غالا قبل احتلال الروس لها وقيامهم بهدمها وبناء مدينة جديدة مكانها هي مدينة غروزني الحالية عاصمة جمهورية الشيشان.

٢٦- كتاب سيوف الجنة ص٢٨.

٢٧- كتاب قتلة الأمم ص١٩.

٢٨- كتاب "قتلة الأمم" ص١٩ - ٢٩.

٢٩- من كتاب الاحتلال الروسي لمنطقة القوقاز ص ٤٧- ٥٦، ٨٠ - ٨٣.

٣٠- كتاب "قتلة الأمم" ص٦٩.

٣١- من كتاب "قتلة الأمم" ص٨٠ - ٨٣.

٣٢- كتاب الاحتلال الروسي لمنطقة القوقاز ص٦٠.

٣٣- كتاب الاحتلال الروسي لمنطقة القوقاز ص٦٧.

٣٤-٣٥- حسب ماجاء في كتاب "الإمام منصور: الإمام الأول للشيشان" لمؤلفه طارق كاتلو .

٣٦- كتاب الاحتلال الروسي لمنطقة القوقاز ص٧٣.

٣٧- كتاب "سيوف الجنة" ص٨٠.

٣٨- كتاب "سيوف الجنة" ص٢٣.

٣٩- كتاب الاحتلال الروسي للقوقاز ص١٢٥.

٤٠- المرجع السابق ص٢٠٩.

٤١- سيوف الجنة ص١٨٦.

٤٢- كما جاء في كتاب الاحتلال الروسي لمنطقة القوقاز ص ٣٠١.

٤٣- حسب ماجاء في كتاب قتلة الأمم ص٢٨.

٤٤- كلمة حجا بالشيشانية تعني الحاج.

٤٥- اسم تركستان كان يطلق على جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية قبل تقسيمها إلى دويلات.

٤٦- حسب ما جاء في كتاب "حاجز شمال القوقاز" (ص١٤٣) فإن نجم الدين غوتنسكي من إقليم أفاريا الداغستاني كان رئيس هذه الجمهورية السياسي بينما أوزون حجا كان زعيمها الروحي وهو من الشيشان وكان عمره تسعين عاماً. وقد توفي الحاج أوزون خلال سنة ١٩٢٠م بينما تم إعدام نجم الدين غوتنسكي عام ١٩٢٥م.

٤٧- انظر ماجاء في كتاب حاجز شمال القوقاز ص١٥٩.

٤٨- المرجع السابق، ص١٨٣.

٤٩- كتاب قتلة الأمم ص ١٤٢ - ١٤٣.

٥٠- كتاب الشيشان ص١٢.

٥١- جميع الأرقام والتوزيع السكاني هي حسب ماجاء في كتاب "المسلمون في الاتحاد السوفياتي السابق" وحسب إحصاء عام ١٩٨٩م .

٥٢- قبل إعلان الشيشان انفصالهم عن روسيا الاتحادية عام ١٩٩١م حيث لايعتبر الشيشان أنفسهم منذ ذلك اليوم تابعين لروسيا الاتحادية. أما الأنجوش فإنهم لايزالون تحت حكم روسيا الاتحادية.

٥٣- الاسم الروسي لها هو "بتروفسك".

٥٤- حسب ماجاء في كتاب "الشركس" للمؤلف محمد خير حغندوقه".

٥٥-٥٦- حسب ماجاء في كتاب "قتلة الأمم" وكذلك كتاب المسلمون في الاتحاد السوفياتي السابق.

١- محمد خير حغندوقة: الشركس: أصلهم ، تاريخهم، عاداتهم ، تقاليدهم، هجرتهم للأردن، عمان : مطبعة رفيدي، ١٩٨٢م.

٢- طارق كاتلو: الإمام منصور، الإمام الأول للشيشان، ترجمه من التركية إلى العربية: حميد يونس وأحمد بولاد، عمان، ١٩٩١م.

1- Avterkanov, A. Broxup, M. Bryar, F. Gammer, F. and Henze, P. The North Caucasus Barrier: The Russian Advance Towards The Muslim World. Hurst and Company, London, 1992.

(حاجز شمال القوقاز : التوسع الروسي نحو العالم الإسلامي)

2- Baddley, John . The Russian Conquest of the caucasus. Longman's Green and Co, London, 1908.

(الاحتلال الروسي لمنطقة القوقاز)

3- Bennigsen, Alexander. Four Scripts of Islam in the Caucasus. RL Information Management Unit, Munich, Germany, March 17 (1988).

(أربع وثائق تاريخية عن الإسلام في القوقاز)

4- Blanch, Lisley. Sabres of Paradise. Carrol and Craft Inc, New york, 1984.

(سيوف الجنة)

5- Chechenia: Report of an International Alert Fact Finding Mission. International Alert. I, g/yn Street, London SEII 5HT. UK.

6- Conquest, Robert. The Nation Killers. Macmillan and Co, LTD, London , 1975.

(قتلة الأمم)

7- Muslims in the Former Soviet Union. Center For International studies, Amman, Jordan. Royal Scientific Society (1992).

8- Brief History of the Central Asian Republics and Azerbijan Center for international Studies, Amman, Jordan Royal Scientific Society (1992).